الفصل الأول

ظاهـــرة العبـــوديـــة

- تمهيد
- لماذا عبيد إفريقيا؟
- من أين جاء هؤلاء؟
- نظم التحالف العبودى

تمهيد

وصف المؤرخ البريطانى الشهير «بازيل ديڤيدسون» فى كتابه الموسوعى «إفريقيا تحت أضواء جديدة» تجارة الرقيق الأوروبية بقوله: «فاقت تجارة الرقيق بعد اكتشاف السواحل الإفريقية أى مدى عرفته هذه التجارة فى القديم، حين كان يمارسها العرب وتمارسها بعض الدول الزنجية. لم تكن تجارة العرب والزنوج إلا نكبة خفيفة على أطراف القارة وفى داخلها، ولكنها اتخذت معنى جديداً حين شرعت السفن الأوروبية تنقل الشباب من الداخل ومن الساحل وتدمى الحياة فى القارة، وأضحت النخاسة على يد الأوروبيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود (الطاعون) الذى اجتاح أوروبا فقضى على ما يقرب من ثلث أهلها، بل أسوأ؛ لأن النتائج الاجتماعية كانت أقسى من الموت، فالوباء الذى تعرض له الأوروبيون انقضت معه آثاره ولكن القهر الذى تعرض له الإفريقيون والذل الذى عاشوه لم يكن لتنقضى آثارهما، ولم يجتح الموت الأسود أوروبا إلا عدداً من السنين بينما استمرت تجارة الرقيق تحصد السكان حصداً وتهدد معنويات من بقى منهم على القارة أكثر من أربعة قرون.

إن أثر هذه التجارة الكامن فى الناس والأقاليم يصعب بل يستحيل تحديده، خربت المجتمع وأوقفت نموه الحضارى ولطخت وأفسدت نسيج المجتمع الإفريقى. لقد عرفت إفريقيا الرق قبل أن يصل البيض من أوروبا، ولكن الرقيق كان عضواً حيويّاً فى إطار المجتمع وله مكان معين تحدده التقاليد السارية والعادات، واستشرت تجارة الرق على يد أوروبا فتحولت إلى عملية وحشية من الصيد الذى لا يرحم، لقد نجحت أوروبا الاستعمارية فى أن توهم الإفريقيين بأنهم يحملون وزر الرق كما تحمله أوروبا، ونجحت فى خلق إحساس آثم لدى الإفريقيين[1].

(١) بازيل ديڤيدسون: إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال محمد أحمد ـ دار الثقافة بيروت. لبنان ص ١٩٣ ـ ١٩٥.

هذه الشهادة من مؤرخ كبير موثوق به تقابلها الآن أصوات وكتابات غربية تحاول أن تنفى عن الغرب مسئولية جريمة الرق وتلقى بها على العرب متهمة لهم بأن التجارة العربية فى الرقيق المعول الذى هدم إفريقيا السوداء.

وتسايرهم أيضًا فى هذا الادعاء بعض الأصوات الزنجية التى انحرفت بالزنجية عن مسارها. فبينما كانت نشأة الدعوة الزنجية فى ثلاثينيات القرن العشرين ضد الاستعمار الأوروبى وتجارة الرقيق الأطلنطية أصبحت موجهة إلى الماضى الأبعد لا إلى الحاضر الاستعمارى، وتثير مسألة تجارة الرقيق العربية عبر الصحراء الكبرى والمحيط الهندى، ولم تعد نظرة الإفريقيين للعرب أنهم عناصر أجنبية وفدت على إفريقيا شأنهم شأن الأوروبيين المسيحيين، بل إن صورة العرب والإسلام أصبحت أكثر ارتباطًا فى ذهن الإفريقى بصورة العبودية والاستغلال وتجار الرقيق. ووجهت بعض الأدبيات الزنجية الانتقادات اللاذعة لمسئولية العرب عن المصير التاريخى السيئ الذى وصلت إليه القارة الإفريقية[1].

وقد اشتدت تلك الحملات ضد العرب فى السنوات الأخيرة فى الصحافة ووسائل الإعلام، وللأسف لم تظهر دراسات موضوعية عربية أو إفريقية تواجه تلك الاتهامات، بل أصبحنا نجد من بعض المثقفين العرب من يردد مقولة إن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم، متغاضين عن حقيقة أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق فى إفريقيا أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى إلى إضعاف تماسكها وسهل مهمة الحركة الاستعمارية فى السيطرة عليها[2].

***

إن تجارة الرقيق معروفة منذ العصور الأولى للبشرية، وعرفت الأمم القديمة فى حضاراتها أنواعًا من الرق، وأدبيات بعض فلاسفة الغرب تؤيد الرق فأرسطو فيلسوف الأمة الإغريقية يوجب الرق بقوله «لا يزال فى العالم مخلوقات للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة تحكمهم فى ذلك حكم الآلات الحية التى تساق للعمل ولا تدرى ما تساق إليه». وأفلاطون فى جمهوريته يقول إنها لا تقوم إن لم يكن فيها رقيق يقومون

(١) العرب فى إفريقيا ـ سمنار كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٨٧م، د. جمال زكريا قاسم ص ١٤.
(٢) المرجع السابق ص ٩.

بالأعمال الشاقة، إن الإله الذى خلقهم وضع فى طينة بعضهم ذهبًا يمكنهم أن يكونوا حكامًا ووضع فى طينة آخرين نحاسًا وحديدًا». والرومان الذين اشتهروا بالتقنين كان المبدأ السائد عندهم أن الرقيق يعتبر شيئًا لا شخصًا شأنهم شأن الحيوانات والجماعات التى يمتلكها السيد، ويقال إن قيصر روما عندما فتح بلاد الغال استولى على مليون أسير وضرب عليهم الرق[1].

وهكذا نجد أن الرق ظاهرة لازمت البشرية منذ فجر حضارتها، وما زالت لها حتى يومنا هذا آثار وتداعيات همجية وشائنة ورواسب وبقايا مروعة مما يؤرق كل ضمير حى، إن إيقاع بشر أحرار فى أصفاد العبودية وسلبهم حريتهم وتحويلهم إلى أشياء مملوكة للغير وإهدار كرامتهم وطمس هويتهم وممارسة حق التصرف فيهم بيعًا وشراء شأنهم شأن البهائم لا تنسحب على العبد فقط بل على السيد أيضًا كما قال هيجل «إن عبودية الرقيق تجعل السيد يفقد إنسانيته أيضًا، فالسيد بقدر ما يذل رقيقه ويستبيح كرامته وينكر عليه آدميته إنما يجرد نفسه من أية مشاعر إنسانية[2].

إن الرق ليس من صنع الإنسان الهمجى البربرى المتوحش، وإنما كان من صنع الإنسان المتحضر، ففى عصر الإنسان الأول الذى كان يعيش على قطف الثمار وعمليات الصيد لم تكن هناك حاجة إلى رقيق يعملون من أجل سادة يرفعون عنهم الشاق من أعمالهم، والإنسان بعد ظهور الحاجة إلى العمل أخذ يبحث عمن يعفيه من عناء العمل ومكابدته ومن ذلك نشأ الرق.

لذلك يستحيل القول إن الرق ظاهرة إفريقية، ذلك أن التجارة بالرقيق عرفت فى شتى أرجاء العالم القديم قبل أن تعرفها إفريقيا. فقد كان نظام الرق هو النظام الاجتماعى السائد فى العالم القديم عند قدماء المصريين والهنود والفرس والعبرانيين والصين واليونان والرومان. وكان الرقيق هم وقود حروب وغزوات هذه الممالك والإمبراطوريات. وقد عرفته القبائل الإفريقية شأنها شأن شعوب العالم القديم، ومن نتاجه شيدت السلطنات والممالك الزنجية عصر فجر إفريقيا. كما مارس عرب الجاهلية

(١) قضايا إفريقية ـ د. محمد عبد الغنى سعودى ص ٩٢ ـ ١٠٢.

(٢) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ أحمد فؤاد بلبع (الجزء الأول من نشأة الرق حتى مطلع الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ٢٠٠٣م) ص ١٨.

تجارة الرق فى إفريقيا، وكانت لهم صلات بالمناطق الشرقية والوسطى والصومال والحبشة وزنجبار. وفى داخل القارة عبر الصحراء الكبرى من خلال المسالك الصحراوية إلى سواحلها الشمالية. ولكن كان حجم هذه التجارة محدوداً، ولم تأخذ تجارة الرق شكلها المدمر إلا بالتجارة الأوروبية عبر الأطلنطى بدءاً بالبرتغال ثم إسپانيا وهولندا وبلچيكا وفرنسا وبريطانيا، وابتدعوا نوعًا فريداً من تجارة الرق غير التجارة التى عرفتها إفريقيا عبر القرون[1]. فما حدث لم يكن مجرد استعباد إنسان وتسخيره لخدمة طبقة أو سلطة أو نظام، إنما كان شيئًا لم تشهده البشرية من قبل. إن ما أضر بالقارة الإفريقية ليس نظام الاسترقاق داخل مجتمعاتها وإنما سرقة شبابها والاتجار بهم وشحنهم كالحيوانات خارج القارة وتفريغها من أبنائها فاهتز بذلك هيكلها الاجتماعى والاقتصادى وانهارت إفريقيا كلها كقارة. إن عملية الاسترقاق فى العالم القديم والعصور الوسطى لم ترتبط بعنصر أو عرق معين، ولا بحدود جغرافية، وإنما شملت كل السلالات وانتشرت فى كل أنحاء العالم القديم، غير أنه مع بداية العصور الحديثة أصبحت إفريقيا هى المجال الجغرافى الوحيد الذى مورست فيه ظاهرة الاسترقاق عبر البيع والشراء مما أصبغ العملية بصبغة عرقية أفرزت نتائج سلبية كبيرة.

ولم تكن هذه التجارة وليدة سنوات بل امتدت لأربعة قرون وأكثر حتى خلت مناطق كاملة من إفريقيا من السكان، ودخلت القبائل والأقوام الإفريقية فى دوامة نزوح هيستيرية مفزعة كقطيع الماشية تتهدده الكواسر من كل صوب، نزحت القبائل من هول غزوات غرب القارة. فقطعت طريقها شرقًا الغزوات من الساحل المقابل، ونزحت من الوسط متجهة شمالاً فوقعت فى كمائن غزوات وقوافل تجار الرقيق عبر الصحراء، دمار شامل أقرب إلى الزلازل والأوبئة أهلك القوى المنتجة الإفريقية وأهدر طاقاتها وملكاتها الإنسانية المبدعة لقرون قادمة، فاختلت دورة حياة الإنسان والزرع والضرع، اندثرت مواقع الحضارات والثقافات ودكت محاريب المعتقدات الدينية، وانفرط عقد الروابط التى انجدلت عبر قرون وحقب، أنهار مسار التطورات البطيئة العفوية الهادئة الوادعة لإنسان إفريقيا فتمزقت خريطة القبلية والإثنية والعرقية.

(١) المرجع السابق ـ مؤسسة الرق من فجر البشرية. ص ٢٩.

نشأة مؤسسة الرق

من المتعذر تحديد بداية نشوء مؤسسة الرق، فالرق ظهر منذ كان الاجتماع البشرى ومنذ كف الإنسان عن ذبح أسراه فى الحروب بعد أن تبينت له قيمة العمل وعرف أن الأسير الحى خير من الأسير المذبوح، وبذلك يكون الرق ظهر حيثما كانت هناك أعمال يمكن أن يرفع كاهلها عن الإنسان ليوكل به على إنسان آخر[1].

وقبل الحديث عن تطور مؤسسة الرق من الأصوب التفريق بين الرقيق والقن، بين مفهوم العبد أو الرقيق slave ومصطلح «القن ـ serf». فالرقيق مملوك لمالك وممتلكات العبد الشخصية ـ إن امتلك أصلا ـ تكون ملكًا لمالكه، وكذلك زوجته وأطفاله تكون من أملاك صاحبه، وهو لا يستحوذ على ما ينتج ولا ينال مقابلاً لخدماته سوى طعامه أو ما يقيم صلبه، ويتصرف فيه المالك بيعًا وشراء ومؤاجرة. أما القن فهو إنسان حر مملوك لمالك لا يباع ولا يشترى، له حق ولايته على ممتلكاته الشخصية وزوجته وأطفاله ومسكنه، قد تباع وتشترى الأرض التى يعمل فيها أو تورث ولكن المالك الجديد يمتلك الأرض ولا يمتلك القن. ويرتبط القن بعقد مكتوب أو غير مكتوب يبقى بمقتضاه فى أرض أو خدمة السيد لا يبرحها إلا بموافقته، وقد يلزمه السيد بالعمل فى الأرض وتسليم نسبة من المحصول وما فاض فهو له. وقد يخصص له السيد قطعة أرض صغيرة يتصرف فى عائدها مقابل العمل لأيام معلومة فى أرض السيد، وقد يلزمه السيد بإتاوة سنوية أو عينية أو نقدية أو الاثنتين معًا[2].

ويرتبط العبد أو الرقيق بعلاقة ولاء مع سيده وتنشأ هذه العلاقة بعد أن يعتقه سيده، فأحيانًا كان السيد لسبب أو لآخر يعتق أحد أرقائه، فهل كان يؤدى ذلك إلى تحريره؟ وهل يصير العبد حرا بعد أن تخلى سيده عنه؟. فى هذه الحالة تنشأ ما يعرف بعلاقة الولاء وهو أن يظل العبد فى أغلب الأحوال مرتبطًا بسيده ويستمر خضوعه لسيده وخنوعه له، وإذا قصر العبد فى الواجبات التى تفرضها عليه هذه العلاقة يجوز لسيده السابق أن يستعيده من جديد رقيقًا له. وفى موسوعة «وصف مصر» التى سجلها علماء

(١) الرق فى الإسلام ـ أحمد شفيق باشا ص ١٢ ـ ٢١ نقلاً عن كتاب «مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة» ص ٣٤.

(٢) علاقات الرق فى المجتمع السودان النشأة ـ السمات ـ الاضمحلال ـ توثيق وتعليق تأليف محمد إبراهيم نقد ـ دار الثقافة الجديدة (الطبعة الأولى) ١٩٩٥م. ص ١٥١.

الحملة الفرنسية أن المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله «عندما يأتون لزيارته يظلون واقفين فى مظهر خانع ولا يجلسون أمامه مطلقًا إلا إذا دعاهم إلى ذلك، وكانوا يحرصون على ألا يجلسوا على الأريكة نفسها التى يجلس عليها سيدهم»[١].

أوجزت الموسوعة البريطانية جـ ٢ ص٧٧٣ خلفية تاريخية لمؤسسة الرق فى نشوئها وارتقائها ثم انحلالها بنموذج أثينا وروما، وأشارت إلى أن مصادر الرق كانت من تناسل وتوالد الأرقاء، ومن بيع المواطنين الأحرار لأطفالهم من عوز وإملاق، ومن استرقاق المرابى للمدين المعسر، ومن قراصنة البحار. ثم أصبح أسرى الحرب أكبر مصدر للأرقاء تليه تجارة الرقيق وأسواق النخاسة[٢]. وكان الرقيق يسخرون فى مختلف الأعمال سواء أكانت خدمة منزلية أو أشغالاً شاقة، وكان حق المولى على عبده لا يختلف فى شىء عن حقه على سائر أملاكه، ومن ثم كان يجوز له رهنه. وكان ملاك العبيد يشتطون فى عقاب عبيدهم بالجلد بالسياط والطحن فى الرحى. وكان العبد الآبق يكوى على جبهته بالحديد المحمى بل إن العتقاء من العبيد كانوا يلزمون بالولاء لأسيادهم السابقين مدى الحياة ويؤدون لهم الواجبات المفروضة[٣].

وفى روما ربت مؤسسة الرق وازدهرت، وكانت مصادر الرقيق فى بدايتها أقاليم إيطاليا التى أخضعتها روما، لذا احتل أسرى الحرب المصدر الأول، ثم عن طريق القرصنة والاختطاف تألفت عصابات فى البر والبحر للإغارة على الجماعات الآمنة، وكان القراصنة يقومون باختطاف البشر من مناطق بعيدة فى إفريقيا وآسيا ويسوقونهم إلى الموانى الرومانية ثم ينقلونهم إلى روما وغيرها من المدن الرومانية. وقد اتخذت القرصنة طابعًا عسكريًا، فالقراصنة كانوا يعملون تحت علم دولهم وبدافع منها. وكان ضحايا القرصنة يعتبرون من الغنائم ويجرى التبادل بهم وغالبًا ما كان اليهود هم الوسطاء فى التداول والافتداء[٤]. وكان للدولة أرقاؤها للعمل فى المناجم والأشغال العامة وشق الطرق وأداء مهام الحراس والسجانين وخدمة المعابد وصيانة القنوات

(١) وصف مصر ص ٢١٠ ـ ٢١١ نقلاً عن كتاب «مؤسسة الرق»، المرجع السابق ص ٤٦.
(٢) علاقات الرق فى المجتمع السودانى، المرجع السابق ص ١٨٨.
(٣) قصة الحضارة المجلد الأول الجزء الثانى ـ ول ديورانت ترجمة محمد بدران ص ١٦٣ ـ ١٦٥ نقلاً عن كتاب «مؤسسة الرق»، المرجع الساق ص ٢٥٦.
(٤) مؤسسة الرق ـ المرجع السابق ص ٣١٣.

وتطهير المجارى. وعندما كان يتكاثر عدد الرقيق فى المحاجر والمناجم والمزارع الكبيرة وتصعب رقابتهم كان يوثق الأرقاء فى قيود وسلاسل ليعملوا فى جماعات وأيام محددة، وتوثق الجماعات ببعضها عند النوم.

وانحدروا بالأشداء الأقوياء إلى حلبات المصارعة واتخذ المرابون والسماسرة من حفلات المصارعة والمراهنات مصدراً لثروات طائلة، تقدرالموسوعة البريطانية حجم الرقيق فى روما بما يعادل ثلاثة رءوس رقيق مقابل مواطن حر. ونص القانون الرومانى على الحق المطلق للمالك فى رقيقه حتى حق القتل. وليس للرقيق حق الزواج كما لا يحق له اتهام مالكه بالاغتصاب ولا تؤخذ شهادته فى المحاكم ولا يتم استجوابه بالإجراءات القانونية بل بالتعذيب[1].

وكان للرقيق أسواق كثيرة تعقد فى روما وفى المدن الرومانية، وكان النخاس يعرض بضاعته أمام المشترين على حجر مرتفع بحيث يتيسر لهم معاينتها، وكانوا أحياناً يضعون الرقيق داخل أقفاص كبيرة، ويعلق فى رقبة كل منهم قطعة من الجلد يكتب عليها خصائص حاملها ويأمر النخاس رقيقه بالركض والرقص وبعض الحركات البهلوانية إظهاراً للياقة. وكانت العادة أن يطلب المشترى رؤية الأرقاء عرايا تماماً، وكان يستطيع أن يتحسس أجسادهم ويمسكها بيده ولو لم يكن له رغبة فى الشراء[2].

وظلت هذه الطريقة المهينة لبيع وانتقاء العبيد على طول المدى فى إفريقيا. يصف «بازيل ديفيد سون» فى كتابه «The African Slave Trade» العملية بقوله إن العبيد كانوا يتجمعون من جميع أنحاء البرية ويوضعون فى مكان فسيح أشبه بالسجن قريباً من الساحل أعد لهذا الغرض، وعندما كان الأوروبيون يتسلمون العبيد كانوا يعرضون عليهم فى العراء وكان بحارة السفن يفحصون كل جزء من أجسام كل منهم وهم واقفون عرايا رجالاً ونساء، وكان المرفوضون منهم يسمون «المكرون ـ Mackron» وهم عادة من يزيد سنهم على ٣٥ سنة أو يكون به عيب فى شفتيه أو عينيه أو أسنانه أو يكون به أى عيب آخر[3].

---

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى ـ المرجع السابق ص ١٩٠.

(٢) الرق فى التاريخ وفى الإسلام ـ مصطفى الجداوى نقلاً عن مؤسسة الرق ـ المرجع السابق ص ٣٢٣.

(٣) The African slave Trade - Basil Davidson P. 107.

ومن الطبيعى أن مثل هذه المعاملة المهينة للإنسانية كانت جزءًا من عملية انتقاء السلعة والمساومة عليها ولكنها كانت أيضًا جزءًا من العملية النفسية فى محاولة لسلب الأفارقة واحترامهم الذاتى وتجريدهم من كرامتهم.

وعندما ينتقل العبيد إلى السفن ويبحروا فى محيط شاسع لم يسبق لأحد منهم أن رآه من قبل كان يملؤهم العناد لترك أوطانهم فكانوا أحيانًا يقفزون من القوارب أو السفن ويظلون تحت الماء حتى يغرقوا، كان ذلك الفزع الذى أدى إلى الانتحار وهم ما زالوا على أبواب إفريقيا، وعلى متن السفن كانوا يضربون بالسياط وتشق الجلود، وكان من يظهر عليه التمرد يحكم عليه بالموت بطرق وحشية، ويخير الباقون على أكل قلبه وكبده بعد قتله، أما المرأة فكانت تشد إلى قائم وتجلد بالسياط ويخدش جسدها بجراح طويلة بالسكين. وبعد شراء العبيد كان كل عبد منهم يوسم بسيخ محمى لتمييز الشركة التى اشترته هل هى إسبانية أم برتغالية أم إنجليزية أم فرنسية أم هولندية[1].

وفى عهد التوسع الإمبراطورى كادت روما تختنق تشبعًا بالرقيق، وشهدت هذه الفترة تسلل أرقاء إلى مواقع النفوذ فى الأُسر وفى الدولة وفى الجيش، وتكاثر عدد الرقيق المعتق حتى أصدر الإمبراطور أغسطس أمرًا بتقييد العتق خوفًا من اضطراب التركيبة السكانية والتشرد والبطالة والجريمة، وتوقف العتق عن ١٠٠ رأس كحد أقصى لا يجوز للمالك أن يتخطاه فى السنة وإن فاقت ملكيته آلاف الرءوس.

وتلخص الموسوعة البريطانية العوامل التى أدت إلى تحلل نظام العبودية ونشأة نظام القنانة خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد؛ بنهاية عصر الفتوحات والتوسع، جفاف ونضوب موارد الرق، ركود تجارة الرق وحرص كبار الملاك والنبلاء على الاحتفاظ بأرقائهم فى الزراعة[2].

على أن أبشع وأقسى ما كان يرتكب فى حق العبيد الذكور هو خضوع البعض منهم لعملية الخصى. والخصى ممارسة شائنة وشاذة أقدم عليها الإنسان منذ أن توطدت أركان مؤسسة الرق وسادت فى ركابه. فالخصى أو الخصاء جريمة نكراء ظلت البشرية

(١) الحمروالبيض والسود ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ تأليف جارى ب. ناس ـ ترجمة مصطفى أبو الخير عبد الرازق ـ كتاب ـ الألف كتاب ١٩١ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) علاقات الرق فى المجتمع السودانى ـ المرجع السابق ص ١٩٣.

ترتكبها منذ فجر ضميرها. كانت محدودة فى البداية ثم أخذت تتوسع وتنتشر فى حضارة تلو الأخرى، وحتى عندما كانت مؤسسة الرق تقترب من نهايتها الرسمية ظل الخصاء يمارس بعد ذلك لفترة طويلة على امتداد القرن التاسع عشر.

ومرجع ارتباط هذه الجريمة بالرق هو أنها ترتكب فى حق أطفال أبرياء أوقعهم سوء حظهم فى ربقة الرق، فالخصاء يجرى أساسًا للصغار لأطفال كانوا إما ضمن أسلاب معركة حربية، أو قامت عصابات إجرامية مسلحة باختطافهم من أحضان أسرهم وبيعهم فى أسواق الرقيق، أو لأطفال باعهم آباؤهم بيع الرقيق بسبب فقرهم أى لأطفال أرقاء. ومن هنا كان ذلك الارتباط الوثيق بين الخصاء والرق.

وقد عرف الخصاء عند الشعوب الشرقية القديمة، حيث كان البابليون والآشوريون يجرونه لأبناء الأسرى، كما كان يجرى كعقوبة للسارق عند الآشوريين وكعقوبة للخونة عند البابلين والفرس. وكان قدماء المصريين يجرون الخصاء للرقيق المجلوب من النوبة والسودان، كما كانوا يجرونه كعقوبة للزانى[1].

وكان بعض المسيحيين يخصون الأولاد ليوقفوهم لخدمة بيوت العبادة، أما الإسلام فقد حرم الخصى، ويقال إن محمد كرا الذى وصل إلى قمة مناصب حاشية سلطان دارفور وهو منصب «الأب الشيخ» خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده السلطان تيراب[2].

ورغم تحريم الإسلام للخصى فقد انتشر الخصيان فى بيوت العرب الأثرياء، وكانوا يعتبرونهم مظهرا للثراء ويجعلونهم خدمًا للحريم وحراستهن. والحقيقة أن خصى الأرقاء أكبر جريمة وصمت بها تجارة الرق العربية وأدينت منها.

***

تورطت فى تجارة الرق الإفريقى عدا الأوروبيين والعرب والإفريقيين أنفسهم، تورطت أطراف أخرى كاليهود والهنود والكنيسة. ولأن الأطراف الثلاثة الأولى هم محور الكتاب وصلبه فمن المهم وجود إشارة سريعة إلى الأطراف الأخرى، وهم وإن كان دورهم يبدو هامشيًا فقد كان له أثر فعال فى هذه التجارة غير الإنسانية.

(١) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ المرجع السابق ص ٣٦.
(٢) علاقات الرق فى المجتمع السودانى ـ المرجع السابق ص ٧٩.

أولاً: اليهود

كان لليهود دور كبير فى تجارة الرق، فكان الرقيق أهم بضاعة لنشاطهم التجارى وعاملاً فعالاً فى رواجه، حيث كانت توجد شبكة من اليهود فى إسپانيا والمغرب الأقصى وبلاد السودان مرورًا بالشام حتى المشرق الأقصى مستفيدين من معرفتهم بعدة لغات. وكان اليهود على مر العصور فى مقدمة النخاسين الذين برعوا فى عملية خصى الرقيق، كما كانوا يقومون بدور الوسيط والسمسرة بين التجار الأجانب الوافدين وأهل البلاد من المغاربة، إلى جانب اعتمادهم على الطوائف اليهودية المتمركزة فى مدن وأماكن كثيرة فى أرجاء العالم. وكان السودان الغربى (غرب إفريقيا) هو المصدر الذى تأتى منه هذه التجارة إلى المغرب الأقصى، وذلك بفضل تنظيم القوافل التجارية عبر الصحراء للمتاجرة فى الرقيق والذهب[١].

وعند اليهود كانت الحروب وثيقة الارتباط بالرق، لذلك عندما تزايدت الحاجة إلى الرقيق وتزايد الطلب عليهم واتسع الاتجار بهم ظهرت طائفة النخاسين اليهود الذين كانوا يسيرون وراء الجيوش ومرافقين لهم حتى إذا انتهى القتال أقبلوا على المنتصر واشتروا منه ما وقع فى يديه من رق ويضعون القيود فى أرجلهم وأعناقهم ويقودونهم إلى أسواق النخاسة يبيعونهم بأثمان باهظة، وفى صدارة هؤلاء النخاسين يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون فى أوروپا ويتنقلون بحرية فى أرجائها، حيث كان أغلب تجار الرقيق فى أوروپا من اليهود[٢].

ثانيًا: الهنود

ارتبط نمو النشاط التجارى العربى فى شرق إفريقيا ارتباطًا وثيقًا بالنشاط الاقتصادى المتزايد للهنود، وكانت سياسة الحرية التجارية التى اتبعها سلاطين زنجبار استتبعت وصول الهنود بأعداد متزايدة إلى المنطقة، ذلك أن السلطان سعيد سلطان زنجبار رأى

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة محمد بدران نقلاً عن مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ المرجع السابق ص ٢٥٦.

(٢) الرق فى التاريخ الإسلامى/ مصطفى الجداوى ص ٩٠ ـ ٩١ نقلاً عن مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ المرجع السابق ص ٢٥٢.

أن أتباعه العرب ليست لديهم رءوس الأموال الكافية لدفع النشاط التجارى العربى، وكان للهنود علاقات تجارية واسعة بشرق إفريقيا منذ قرون طويلة واشتهروا بدورهم فى أعمال الوساطة التجارية وإقراض المال والتعامل مع الربا، واستقرت أعداد منهم فى مدن ساحل شرق إفريقيا. وقد ظل نشاطهم منحصراً فى الساحل لجهلهم بالداخل وخوفهم من عداء القبائل أو تعرضهم لأعمال السلب والنهب.

وحين زاد عدد القوافل التجارية المتجهة نحو الداخل فى شرق إفريقيا للحصول على منتجات الداخل حل التجار الهنود محل العرب فى تمويل هذه القوافل من العرب والسواحليين مقابل تعهد هؤلاء بإعادة دفع أضعاف قيمتها فى شكل رقيق أو عاج عند عودتهم من رحلاتهم فى الداخل.

وقد غالى الهنود فى تحصيل فوائد عالية على الأموال والبضائع التى كانوا يقدمونها؛ لأنه فى حالات كثيرة كان الهنود يفقدون أموالهم نتيجة عدم عودة القوافل التجارية العربية من الداخل بسبب تعرضها للفشل أو السرقة، وأدى ذلك ببعض التجار العرب بأن يقيموا فى المدن الداخلية خشية الخروج إلى الساحل بسبب مطالبات دائنيهم من الهنود[1].

جنى الهنود أرباحًا طائلة من العمل بالوساطة التجارية وتمويل القوافل. وأثبتت الوثائق البريطانية تورطهم فى ممارسة تجارة الرقيق وتهريبهم خارج زنجبار ـ ومن أشهر هؤلاء التجار الهنود «تاريا توبان ـ Taria Topan» الذى أقرض التاجر العربى محمد بن حميد المراجبى الملقب بـ «بتيبوتيب Tippu Tip » (سيأتى ذكره فيما بعد) الذى أقام دولة عربية فى شرق الكونغو ـ أقرضه سبعة آلاف دولار لتمويل قافلة لتجارة الرقيق والعاج فى داخل القارة[2].

وكون الهنود طبقة طفيلية فى شرق إفريقيا وأقاموا مستوطنات تجارية ومخازن خاصة يودعون فيها بضائعهم، وأماكن يخضعون فيها الرقيق الذى يجمعونه وحاميات

(١) سمنار قسم تاريخ جامعة القاهرة ـ الهنود وتجارة الرقيق فى شرق إفريقيا ـ د. محمد مصيلحى ـ المرجع السابق ص ١٧٦.

(٢) سمنار قسم التاريخ جامعة القاهرة ـ المرجع السابق ص ١٧٧.

صغيرة مسلحة لحراسة متاجرهم، ونظراً لأن حيازتهم للرقيق وتجارتهم فيه كانت غير مشروعة فقد أصدر السلطان سعيد قراراً فى يوليو سنة ١٨٥٠م بإحراق مستودعات الرقيق الخاصة بهم[١].

واستولى الهنود على عدد كبير من مزارع العرب فى الساحل وفاء لديونهم، وقد أشار القنصل البريطانى فى زنجبار«پلايفير ـ Play Fair » إلى أن الهنود يحصلون على غالبية مزايا التجارة الخارجية بين شرق إفريقيا والعالم الخارجى نتيجة نشاطهم الاقتصادى المتنوع، وأن العرب الذين يضطلعون بعبء التجارة الأساسى فى داخل شرق إفريقيا لا يتمتعون بأكثر من ٥٪ من عوائدها؛ لأنهم يدفعون معظم هذه العوائد كفوائد للقروض التى يحصلون عليها من الهنود. وقد أثار جشع الهنود السلطان برغش سلطان زنجبار وحاول طردهم من زنجبار لولا تدخل القنصل البريطانى لصالحهم[٢].

ثالثاً: الكنيسة

بارك أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تجارة الرق. فى عام ١٤٤٢م نجد أن البابا يوجسيتياس الرابع أعلن رعايته لحملات خطف الرقيق التى يقوم بها الملك هنرى الملاح فى إفريقيا وأصدر بذلك بياناً باباويّا. وفى الخمسينيات ١٤٥٠ ـ ١٤٥٩م فإن البابا نيقولاس الخامس وكاليكستس الثالث قد أصدرا موفقاتهما الحارة لهذه الحملات. وكانت الكنيسة راضية بنصيبها من الأسلاب فكان كل ما تطلبه هو تعميد المأسورين إلى أمريكا حتى يتيسر إنقاذ أرواحهم، وقد تصر الكنيسة فى بعض الأحيان على أن تحمل السفينة ناقلة العبيد قساً يصاحبها فى رحلتيها بين القارتين، وكان الأسقف يجلس على مقعده الرخامى على الشاطئ فيعمد العبيد ويقبض نصيبه من رسوم التصدير. وقد وصلت هذه الضريبة فى القرن السابع عشر إلى ٣٠٠ كراون يدفعها تاجر الرقيق عن كل عبد، وكانت حملات الرقيق مربحة إلى حد أن أحد الأساقفة أرسل سفينة لحسابه فى إحدى هذه الحملات[٣].

(١) سمنار قسم التاريخ جامعة القاهرة ـ المرجع السابق ص ١٧٨.
(٢) سمنار قسم التاريخ جامعة القاهرة ـ المرجع السابق ص ١٧٨.
(٣) العبودية فى إفريقيا ـ عايدة العزب موسى/ دار الشروق الدولية ص ٣٩.

لم تبد الكنيسة أى اعتراض على الرق بل كانت تؤيد استرقاق من لا يدينون بالمسيحية، وقد اتخذ الأوروبيون هذا المبدأ أساسًا لاسترقاقهم الشعوب واستعبادها، وكان للكنيسة مصلحة مادية فقد أغراها تجار الرقيق بالمال وجعلوا لها رسمًا عن كل رق[١]. ولم ترد أية شبهة اعتراض على ما يتمتع به أصحاب الرقيق من حقوق على رقيقهم، ولم تقدم الكنيسة على إجراء من شأنه تغيير تلك العلاقة الظالمة بين السيد ورقيقه[٢]. ولم تكن فى مضامينها دعوة للرقيق إلى التحرر أو إدانة صريحة لمظالم الرق وسلبياته ولم تقدم على إجراء من شأنه رفع الظلم عن هؤلاء الضعفاء بل إن القديس بطرس مؤسس المسيحية أمر الرقيق بطاعة سادتهم وحضهم على تسخير أجسادهم لخدمتهم والإخلاص لهم مخاطبًا بقوله: «أيها العبيد أطيعوا سادتكم بخوف ورغبة كعبيد المسيح المترفين الضعفاء أيضًا». وعلى أساس مبدأ الخضوع أقامت الكنيسة شرعية للرق واتبع آباء الكنائس المسيحية المختلفة الرومانية واليونانية والپروتستانتية من بعد هذا المبدأ فأباحوا الرق[٣].

حتى فى القرن ١٩ عندما كانت الحملة على الرق فى عنفوانها والصرخات تتعالى بتحرير العبيد كان لا يزال يوجد بين كبار الكنائس الكثيرون ممن أباحوا وأحلوا النخاسة مثل الأب «بوفييه» أسقف مدينة ليمان الذى كانت فتاواه تتخذ أساسًا للتعليم فى الأديرة كان يعتبر النخاسة تجارة حلالاً. وكذلك الأب فوردينيه الذى أثبت أن الاسترقاق هو من جملة النظام المسيحى.

كانت تجارة الرق رائجة بوجه خاص فى إيطاليا لقربها من المناطق الإسلامية، إذ كان التجار الصقالبة يواصلون اختطاف المسلمين من الأراضى الممتدة على شواطئ البحر الأسود وآسيا الغربية وإفريقيا الشمالية، وكان النخاسون المسيحيون يخطفونهم منها وهم مرتاحو الضمير لاعتقادهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين بسبب غاراتهم على البلاد المسيحية[٤].

---

(١) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ المرجع السابق ض ٣٧٥.
(٢) الرق ماضيه وحاضره/ عبد السلام الترمانيتى ص ٣٢ نقلاً عن مؤسسة الرق ـ المرجع السابق ص ٣٤٦.
(٣) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ المرجع السابق ص ٣٤٧.
(٤) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ المرجع السابق ص ٣٥٣.

ولم تكن الكنيسة تكتفى بما لديها من أعداد كبيرة من الرقيق بل كانت تستزيدهم باستمرار، وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضى الكنيسة فى بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد، فقد كان العبد لدى الكنيسة يعد من السلع.

وبعد سقوط الدولة الإسلامية فى إسپانيا مارس المسيحيون ضد المسلمين صنوفًا من التعذيب والتنكيل، كان يتم تنصير المسلمين جبرًا، وقد صدرت الأوامر فى عام ١٥٤٢م لرجال التفتيش على التعجيل بإجبار المسلمين على التنصير ومن يرفض فعليه أن يغادر إسپانيا أو أن يصبح رقًا طيلة حياته[١].

يقول هيوتوماس فى كتابه «شبح الملك ليوبولد ـ King Leopold's Ghost» إن شهوة أرباح العبودية قد شملت بعضًا من القساوسة الذين تركوا التبشير واتخذوا من الناس السود محظيات وعبيدًا، وباعوا تلاميذهم وحولوهم إلى العبودية. وأن القساوسة كانوا بعد عهد الإصلاح يحاولون أن يتأكدوا من أن بضائعهم البشرية لم تصل إلى أيدى البروتستانت لأن من عمد فى الكنيسة الكاثوليكية لا يجوز أن يباع لأعداء الإيمان الكاثوليكى، وأن الرجال الذين أرسلوا من لشبونة ليكونوا مبشرين فى مبانزكونغو (الكونغو حاليًا) ما لبثوا أن جنوا أموالاً كثيرة من وضعهم قطعان الأفارقة فى السلاسل وسحبهم إلى الساحل لقباطنة السفن حاملة العبيد[٢].

***

(١) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ـ المرجع السابق ص ٣٦١.

(٢) King Leopolds Ghost, Adam Hockschild, Pan Books, Pan Macmillan Lid, 2 London 2002, P. 9-10.

لماذا عبيد إفريقيا؟

لماذا كان هذا اللهاث والتنافس الحاد بين الأوروبيين لاقتناص العبيد الأفارقة بالذات رغم أن العبيد فى ذلك الوقت كانوا يجلبون من آسيا وأوروبا وغيرها؟

كان اكتشاف أمريكا وتعميرها الحافز الأساسى والعامل الأول إذ ظهر أن الإفريقى أكثرقوة ومقاومة وقدرة على العمل الشاق وتحمل الظروف المناخية المتشابهة بين إفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية. كانت أكبر المشاكل التى واجهها الفاتحون الأوروبيون المنتصرون فى نصف العالم الجديد وهى المشكلة التى بقيت قرونًا عديدة هى كيف يوفرون عمالة ضخمة تتكون من آلاف مؤلفة والتى يمثل وجودها ضرورة لاستغلال تلك الثروات المبكرة الواسعة من المناجم والمزارع الكبرى وقطعان الماشية وغير ذلك مما فتح أبوابه الغزاة الجدد. ومع إلحاح هذه المشكلة وهذا الظمأ للكسب الذى جُبل عليه الفاتحون فإنهم استخدموا بقسوة كل وسائل وأساليب العبودية واستعبدوا الهنود الحمر كما استعبدوا الزنوج، ولم يفرقوا فى ذلك بين رجل وامرأة ولا بين عجوز وطفل أو صبى. لقد كان الاستغلال فى كل أمريكا واحدًا من أفظع المآسى التى عرفها تاريخ العالم. وعلى مدى أربعة قرون والنصف منذ وصول كولومبس إلى أمريكا قضى على عمال يعدون بعشرات الملايين فى هذا الاستغلال، لم تكن الحياة تعنى شيئًا بالنسبة للمستثمرين، وكل المستعمرين كانوا آثمين فى هذا الأمر سواء كانوا من الإسپان أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الإنجليز أو الهولنديين.

استعباد الهنود الحمر

بدأ استعباد الهنود الحمر فى أول أيام الغزو الأوروبى، كانت إسپانيا فى القرن السادس عشر لا يزيد سكانها على بضعة ملايين. ولم يكن يزيد سكان البرتغال عن المليون والنصف مليون، فكان من الواضح أن المستثمرين منهم فى أمريكا لن يستطيعوا الحصول من بلادهم الأصلية على عمال يكفون استثماراتهم فى العالم الجديد. ومن ثم ظهر احتياجهم للأهالى الهنود فى أمريكا وعملوا على أن يسترقوهم ويستخدموهم بوصفهم عبيدًا. ويذكر المؤرخون أن الإسپان، فى ذلك الوقت، لم يكونوا يعتبرون الهنود ممن ينتمى للجنس البشرى، وأنهم لم يكونوا فى نظرهم يستحقون معاملة أكثر من معاملة تختلف عن الخيل والكلاب.

وكثرت الكتابات فى النصف الثانى من القرن السادس عشر تصف الهنود بأنهم مخادعون أجلاف متوحشون وأنصاف آدميين تشمئز النفس منهم، وأنهم من آكلى لحوم البشر كما جاء فى كتاب منشور سنة ١٥٧٨م «إنهم لا يجدون أى لحم فاسد إلا أكلوه على حالته دون أى نوع من الطهى وأنهم بهيميون ينغمسون فى ملذاتهم الجنسية وتحركهم العواطف أكثر مما يحركهم العقل»[١].

إن محاولة استرقاق الهنود الحمر بدأها الإسپان فى جزر الهند الغربية بعد وصول الإسپان بقليل، ولكن هذه المحاولة ما لبثت أن فشلت فلم يستطع الهنود أن يعملوا فى المزارع الواسعة، والكثير منهم لم تستطع صحته أن تحتمل ما لم يعتده من عمل شاق تحت الشمس الحارقة، والبعض قتلته السياط التى جلدهم بها الآتون عبر البحار. وشكلت الأمراض المعدية التى جلبها الأوروپيون معهم إلى العالم الجديد كالجدرى والدفتيريا والحمى القرمزية والحمى الصفراء كوارث على أهالى البلاد الأصليين فلم تكن لدى الهنود الحمر مناعة عندما وصل الأوروپيون حاملو هذه الميكروبات، مما جعل تأثيرها سريعًا ومميتًا وأبيدت قبائل بكاملها خلال سنوات قليلة[٢]. وخلال جيل واحد كادت جزر الهند الغربية تفرغ من سكانها الهنود. إن الكتاب الذى كتبه «لاس كاساس ـ Las Casas » وكشف فيه الاستغلال الإسپانى البربرى والقتل الجماعى للهنود كان واحدًا من أكثر الكتب التى قُرئت فى هذه الفترة وهو «تدمير الهنود الحمر ـ The Destruction of the India».

قبل مجىء الأوروپيين كانت الحروب بين الهنود محدودة ولم تساعد الدوافع إليها ولا الأسلحة البدائية على خسائر كبيرة فيها. وبعد ذلك أصبحت حروب إبادة شاملة لأسباب اقتصادية، ثم ازدادت تدريجيًا من أجل أهداف أوروپية.

كان استيلاء الأوروپيين على الأراضى من خلال مجموعة من الخدع المخطط لها، كان الأوروپيون يطلقون الماشية إلى الحقول الهندية المعدة للزراعة ويتركونها بها فترة من الوقت كوسيلة فعالة لإقناع الهندى إن أرضه تفقد قيمتها، كما كانوا يستخدمون الكحول لإضعاف براعة الهندى فى التفاوض أو يشترون الأرض بأبخس ثمن من

(١) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ص ٥٣.
(٢) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ص ٩٣.

زعيم هندى يدعى ملكيتها كذبًا ثم يقيمون الدعوى على أى زعيم ينازعهم عليها، أو تغريم الهندى عن أى اعتداء أو إهانة بسيطة للقانون الإنجليزى كالتنزه يوم الأحد أودخول مدينة دخولاً غير قانونى ثم ينقذونه من الدين الذى سيعجز عن سداده بإعفائه من الغرامة نظير قطعة من أرضه[1]. وكانوا يحاصرون قرى الهنود ويشعلون النار فى أكواخها وينتظرون الهاربين الناجين من هذا الجحيم ويحصدونهم بنيرانهم، يقتلون الرجال ويستحيون النساء والأطفال ويتخذونهم عبيدًا أو يبيعونهم لقبائل أخرى أو يشحنونهم مكبلين فى السفن إلى جزر الهند الغربية. كتب أحد الهولنديين يقول «الأطفال الصغار، انتزع بعضهم من أمهاتهم وقطعوا إربًا أمام أعين والديهم وألقيت أشلاؤهم فى النار أو النهر، وربط أطفال آخرون على ألواح من الخشب ثم ذبحوا كالحيوانات مما ينفطر له قلب الحجر، كما ألقى البعض فى النهر، وعندما حاول آباؤهم وأمهاتهم انقاذهم لم يسمح لهم الجنود بالعودة إلى الشاطئ بل تركوا الجميع كبارًا وصغارًا يغرقون، وهرب القليل منهم وقد فقد البعض يده والبعض الآخر رجله والبعض كان يمسك بأمعائه بأيديهم. . هكذا كان الكل إما مقطع الأوصال أو مضروبًا بآلة حادة أو مشوهًا بدرجة لا يمكن تصور أسوأ منها[2].

وهكذا تشابهت تجارة العبيد الإفريقية مع التجارة فى الرقيق الهندى، فالأوروبيون لم يتوغلوا فى الداخل وإنما كوّنوا أحلافًا مع الجماعات الوطنية الساحلية وزودوهم بالسلاح وكافؤوهم بسخاء بالبضائع الأوروبية وشجعوهم على محاربة الجماعات الهندية الأضعف منهم والتى كانت تعاديهم من قبل. وفى السبعينيات من القرن السابع عشر اخترقت قوافل العبيد الأراضى الخلفية إلى الساحل مثلما كانوا يسيرون تمامًا فى طوابير طويلة عبر المناطق الداخلية فى إفريقيا إلى القلاع التجارية على ساحل غرب إفريقيا وما أن يصلوا إلى الساحل حتى يشحنوا على السفن ليكملوا ترحيلهم إلى مستعمرات أخرى، وكما كان الإفريقيون يعبرون الأطلنطى أثناء ترحيلهم وإعادة توطينهم الإجبارى كان غالبية العبيد الهنود ينقلون إلى جزر الهند الغربية، وشحن مئات منهم فى سفن تجاه الشمال إلى مستعمرتى نيويورك ونيوإنجلاند[3].

(١) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ص ٩٨.
(٢) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ـ ص ١١٥.
(٣) الحمر والبيض والسود، المرجع السابق ـ ص ١٣٠.

حمل لاس كاساس موضوع تدمير الهنود إلى محاكم إسپانيا، وأدت هذه الإثارة مع الوقت إلى صدور قوانين تمنع استعباد الهنود بشكل شخصى وتعطيهم بعض الحقوق مع إبقاء استغلالهم فى المزارع الكبيرة، وما لبثت هذه القوانين أن أهملت فى التطبيق فى كل أمريكا بسبب المعارضة التى جاءت من جانب ملاك الأراضى. وحدث الشيء نفسه تقريبًا فى بيرو أيضًا وعاد الاستعباد من جديد، ونشأ نظام هناك يمكن المالك الذى يحوز الأرض من السيطرة على الهنود الذى يعملون فيها، وانتشر هذا النظام مع بادية القرن السادس عشر فى «سانتو دومنجو ـ Santa Domingo» ومختلف المستعمرات الإسپانية والمكسيك وبيرو والأرچنتين.. إلخ.

وطبقًا لهذا النظام كان الهنود يعطون قطعًا صغيرة من الأراضى الفقيرة مقابل أن يقدموا عملهم لخدمة أراضى الملاك الأوروپيين، وبالتدريج كان يقل الوقت الذى يبذله الهنود فى أراضيهم ويزداد بالتدريج الوقت الذى يعملونه فى مزارع السادة. وفى شيلى كان الهنود يعملون فى أراضيهم الخاصة نحو ١٦٠ يومًا فى السنة، ثم هبط عدد هذه الأيام بعد عدة عقود لتصير ٦٥ يومًا فقط يعملون فيها لأنفسهم. وقد ألغى هذا النظام سنة ١٧٢٠م واستبدل به نظام آخر صار هو السائد فى المزارع الكبيرة فى أغلب المستعمرات الإسپانية، وفى هذا النظام الجديد صار مالك الأرض يملكها كلها وصار العامل معدمًا لا يملك شيئًا.

وكان ثمة نظام شبيه بهذه النظم وجد فى بيرو وبوليفيا للعمل فى المناجم وطبق فى المزارع أيضًا وفى صناعة المنسوجات وغيرها من المجالات، وهذا النظام وضع عام ١٥٧٢م وبقى نحو مائتى سنة، وكان العمال يعملون فى مناجم الفضة وغيرها فى أقسى ظروف العمل بغير أجر تقريبًا. ويذكر بعض المؤرخين أن قسوة ظروف العمل أدت إلى موت أربعة من كل خمسة هنود فى السنة الأولى لعملهم.

وفى البرازيل وجد نظام مثيل سنة ١٦١١م، كان ملاك الأراضى يتعاملون مع الهنود تعاملهم مع العبيد، مما اضطر الحكومة فى سنة ١٧٢٠م أن تمنع استخدامهم كرقيق إلا إذا كانوا يتجاهلون هذه القرارات ويتعاملون مع الهنود تعاملهم مع العبيد، الأمر الذى أدى إلى هرب الهنود واختبائهم فى داخل الأدغال والغابات البعيدة. وقد كان الأوروپيون يقومون بحملات فى هذه المناطق ويشترك فى الحملة الرجال والنساء

والقساوسة وغير ذلك ليصطادوا العبيد من الأدغال. وفى حملة واحدة فى باراجوى اصطادوا ١٥ ألفًا من الهنود الحمر، وبين سنتى ١٦١٤ و١٦٣٩م استرقوا نحو ٣٠٠ ألف هندى. وكانت هذه الحملات هى ما وسع من نطاق حدود البرازيل مئات الأميال على خلاف ما كانت رسمته المعاهدات القائمة وقتها بين الدول الاستعمارية.

وفى المستعمرات الأمريكية الشمالية التى كان يسيطر عليها الفرنسيون والهولنديون والإنجليز كانت تبذل المحاولات لتحويل الهنود إلى عبيد أرقاء ولكن بغير نجاح كبير. لقد كان من السهل على الهنود المأسورين أن يهربوا من الحدود فيعيشوا بين أهلهم. وكانت القبائل البدوية وشبه البدوية الموجودة على طول ساحل شمال الأطلنطى وفى البرازيل والأرجنتين وشيلى، كان من الصعب أن يتحولوا إلى رقيق. وقد كانت أكثر المناطق كثافة من السكان الهنود وجماعاتهم توجد فى المكسيك وبيرو فكانوا يؤسرون ويباعون عبيدًا، ولكن لسوء حظ المشترين كان الهنود يهربون إلى قبائلهم، ولم تكن القبائل الكبيرة التى تميزت بالقوة وبالاعتاد بنفسها والتى كانت تسيطر على حدود أمريكا الشمالية طوال مرحلة الاستعمار، لم تكن هذه القبائل تحتمل أن يستعبد أبناؤها.

ثورات الهنود الحمر

فرض الإسپان والبرتغاليون على عبيدهم الخضوع لسياسات من القمع والإرهاب الشديد، وكانت أول بادرة تظهر للثورة يواجهونها بقمع لا يعرف الرحمة، ومع ذلك فإن تاريخ العديد من المستعمرات عرف العديد من الانتفاضات التى قا م بها الهنود وسفكت فيها الدماء، وكانت ثمة ثورات فى الساحل الغربى من المناطق الإسپانية من المكسيك وخصوصًا فى المناطق الجنوبية، حيث كانت الكثافة السكانية للهنود كبيرة. وإن الهنود لم يقاتلوا ببطولة فقط ضد الغزاة ولكنهم بذلوا جهودًا ضخمة لطردهم من أراضيهم، ويمكن الإشارة هنا إلى عدد من ثورات الهنود، قامت واحدة منها فى بيرو سنة ١٥٧١م، وبعد مائتى سنة فى ١٧٨٠م فى المنطقة نفسها شبت ثورة أخرى جديدة أعلن قائدها نفسه إمبراطوراً والتف حوله نحو ٦٠ ألف هندى. وعرفت المكسيك انتفاضات عديدة من الهنود وغيرهم من المواطنين منها ثورات فى أعوام ١٥٢٤ ـ

١٥٤١ ـ ١٥٤٦ ـ ١٥٩٥ ـ ١٦١٦ ـ ١٦٦٠ ـ ١٦٨٠ ـ ١٦٩٦ ـ ١٧٠٧ ـ ١٧٦١م، وأكبرها ما كان بين سنوات ١٦٢٤ و١٩٦٢م. وقامت انتفاضات فى شيلى سنة ١٦٠٠م وفى البرازيل سنة ١٥٧٢م. وهى ما عرف بحرب السنوات السبع، كما حدثت ثورات وحروب بين سنوات ١٦٢٠ ـ ١٧٥٠م.

وهذه الثورات التى قام بها الهنود وخاصة فى القرن ١٧ كانت هى طلائع الصراع الثورى الحاسم لتحرير المستعمرات من الإسپان والبرتغال، وقد اتخذت شكلها المحدد فى العقد الأول من القرن التاسع عشر، واندمج فيها الهنود والزنوج أيضًا، وحدثت ثورات فى فنزويلا سنة ١٧١١م، كما حدثت ثورات فى بوليفيا وكولومبيا وغيرهما[١].

استرقاق الزنوج

بعد أن وجد الملاك الاستعماريون من كل جنسية أنه ليس فى مقدورهم استخدام العمال البيض ولا العمال الهنود الحمر فى العمل القهرى فى مزارعهم وفى المناجم تحولوا برغبة جامحة لاسترقاق الزنوج من إفريقيا، وقد صار امتلاك العبيد من الزنوج أمرًا عامًا من الناحية العملية فى النصف الغربى للقارة طوال المرحلة الاستعمارية. إن كل الدول الاستعمارية ـ الإسپان والپرتغال والهولنديون والفرنسيون والإنجليز ـ كانوا مشتركين فى هذه العملية الدنيئة، ولقيت عبودية الزنوج مباركة الكنائس الكاثوليكية والپروتستانتية، كما مارسها كثير من القادة الليبراليين ومن لم يمارسها غض الطرف عنها. إن الاستعباد القاسى للشعوب الزنجية يشكل أكثر ما يشين فى كل التاريخ الأمريكى، وتحولت النظرة إلى أمريكا من أنها قوة تحرير للحياة وتجديدها إلى الأفضل إلى أن أصبحت صورة للتناقض الذاتى، فعلى الأرض التى بشرت بالحرية مورس الرق بشكل بشع وصارت أمريكا كغيرها صورة مزعجة عن تراجع مجرى الارتقاء التاريخى للجنس البشرى.

بدأت الرأسمالية الحديثة من القرن السادس عشر، وكان للعبودية دور كبير فى نموها، وقد ازدادت الرأسمالية ازدهارًا مع تجارة الرقيق ومع العمل العبودى نفسه،

(١) Out Line Political History of the Americas William Z. Foster, International Publishers, New York, 1951, P. 71-75.

هذه حقيقة واضحة بالنسبة للصناعة فى إنجلترا وليست أقل صدقًا بالنسبة لأمريكا، وقد كانت العبودية هى الأساس المباشر للعمل فى مصانع النسيج والعمل فى السفن وذلك فى الجنوب، وقد ذكر «كارل ماركس» مثلاً «وبغير العبودية ما كان يوجد القطن وبغير القطن ما كانت توجد الصناعة الحديثة، فالعبودية هى ما أعطت المستعمرات قيمتها الحقيقية والمستعمرات هى ما أوجدت التجارة العالمية والتجارة العالمية شرطًا مسبقًا للتصنيع على نطاق واسع، ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى للعبودية»[1].

لقد وجد العبيد فى كل المستعمرات وكانوا يسمون العاج الأسود وكانوا مصاحبين للغزاة البيض فى حملاتهم على المكسيك وبيرو وغيرهما. وحيثما كان يوجد عمل شاق يجب القيام به كان العبيد الزنوج يجبرون على أدائه. وفى عام ١٦٠٠م كان ثلث السكان من الزنوج فى ليما Lima وبيرو، وفى الأرچنتين كان حوالى ربع السكان من العبيد. ووجد العبيد الزنوج أيضًا فى مناطق شمالية من مستعمرات الولايات المتحدة فى الأجزاء الشمالية والبعض فى كندا. ولكن القسم الأساسى من العبيد الزنوج كان موجودًا فى المناطق الاستوائية وما يحيط بها فى أمريكا الوسطى وجزر الهند الغربية وبلاد الكاريبى والبرازيل والأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة، حيث وجدت فيها جميعها مزارع السكر والتبغ والقطن وغيرها.

وبالنسبة للملاك كان الزنوج يتصفون بصفات تميزهم عن الهنود الحمر بوصفهم عبيدًا، فكانت أعدادهم كبيرة فى إفريقيا الكثيفة السكان وقتذاك، وكانوا أعظم قوة وأقوى بنية من الهنود الاستوائيين، وأكثر تحملاً للحرارة فى مناطق المزارع الواسعة، وكانوا أعظم مقاومة للأمراض الأوروبية أو أمراض البيئة الجديدة التى جلبوا إليها.

وفضلاً عن ذلك فقد أتى الزنوج من مناطق ذات كثافة أرفع مستوى من ثقافة البدو من الهنود الحمر، وكانوا أكثر تأهلاً للعمل فى الزراعات الكثيفة، وأكثر من ذلك كانوا فى أرض غريبة، فكانوا كالأسرى وأقل ميلاً فى دفاعهم عن الحرية من الهنود الذين يعيشون فى بلادهم وقريبين من أهاليهم ومن القبائل القوية الحرة من بنى جنسهم مما مكنهم من الفرار إلى مواطنهم. والنتيجة الإجمالية لهذا الوضع أنه حيثما وجد الزنوج فى المستعمرات الأمريكية كان سعرهم يفوق كثيراً سعر العبيد من الهنود. وفى الأوقات

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americas P. 77.

المبكرة فى البرازيل على سبيل المثال فإن العبد الزنجى البالغ كان يقدر ثمنه بنحو ٧٥ دولاراً فى الوقت الذى كان يشترى الهندى بحوالى ٥ دولارات أو أكثر قليلاً.

إن التفسير الأساسى للسبب الذى جعل الاسترقاق والنقل بهذه الأعداد الضخمة من العبيد من إفريقيا إلى أمريكا هو قيام التنازعات بين القبائل الزنجية فى القارة الإفريقية. وقد استطاع تجار العبيد من الزنوج ومن البيض أن يلعبوا دوراً فى هذه الخلافات وما أدت إليه من كوارث بالنسبة للشعوب الزنجية، وهى سياسة فرق تسد، السياسة نفسها التى اتبعها الغزاة الأوروبيون بين الهنود السكان الأصليين فى أمريكا.

اغتصاب قارة

إن الجزء ا لأكبر من العبيد جاء من الساحل الغربى لإفريقيا الاستوائية وهو أقرب الشوطئ الإفريقية لتصدير العبيد لأمريكا، ومن ثم تنافست الدول الاستعمارية من أجل الحصول على العبيد ووزعوا القلاع على طول هذا الشاطئ واستبقوا قوات محاربة فيها لاصطياد العبيد. وكان الكثير من السفن يقوم بحارتها بالحملات لقنص العبيد وترحيلهم. وقد ذكر «دى بوا» أبوالوحدة الإفريقية وباعثها «إن أقاليم عديدة أفرغت من سكانها وقبائل كاملة اختفت، كانت عملية اغتصاب للقارة نادراً ما كان لها مثيل فى التاريخ القديم ولا فى التاريخ الحديث»[١].

إن صائدى العبيد كانوا يقيدون العبيد بالسلاسل بعضهم ببعض ويسيرون بهم مئات الأميال ويدمغونهم بالأختام المحماة مثل الماشية لتمييزهم باسم المالك لهم، وينقلونهم عبر البحار فى سفن العبيد المرعبة، يكدسونهم فيها فى ظروف من الجوع والقسوة التى لاتوصف (وكانت أعداد كبيرة منهم تهلك)، ثم يبيعونهم للسادة المستعمرين مثل الماشية. وكان ثمة العديد من التمردات التى تحدث على ظهر السفن. إن الانحطاط الآدمى فى سعيه وراء الربح لم يغرق إلى هذه الأعماق المتدنية بمثل ما حدث فى تجارة العبيد.

يصف أحد الكتاب ما رآه فى إحدى سفن القرصنة التى تتاجر فى الرقيق والتى كانت تصل إلى أحد الموانى الأمريكية سنة ١٨٢١م يقول «إن المساحة التى كانت للرجل الواحد

(١) المرجع السابق .Out Line Political History of the Americans.P. 78.

قليلة إلى حد أن أرجلهم كانت تتداخل بعضها فى بعض، ولم تكن هناك أية إمكانية لأحدهم لكى يرقد أو يغير هذا الوضع ليلاً كان أو نهارًا». ويذكر الكاتب أن هذه كانت واحدة من أحسن سفن العبيد والأسوأ كانت تعطى مساحة تقدر بـ ١٨ بوصة للشخص، وبسبب هذه الظروف المرعبة وغير المعقولة كانت الرائحة الكريهة لسفن العبيد حادة إلى درجة أنها كانت تشم على بعد أميال عندما تأتى بها الريح.

ويصف كاتب آخر يسمى «ماك ماستر ـ Mc Master» الصورة المزعجة لسفينة العبيد قائلاً «عندما تغرب الشمس ينزل الجميع إلى أسفل وكانت المساحة المتاحة لكل واحد يرقد فيها كانت ستة أقدام طولاً وست عشرة بوصة عرضًا، وكانوا ينامون على الأرض، وكان السوط يستخدم لإجبارهم على الالتصاق بعضهم ببعض فى أضيق مساحة، وكان من المستحيل لأى منهم أن يتقلب ذات اليمين أوذات الشمال إلا أن يعانى كل الصف من الفوضى والاضطراب، ولكن مأساة الليل لا تساوى شيئًا بالنسبة لمآسى اليوم العاصف لأنهم كانوا يحيطون المراكب بالأقمشة السميكة فتمنع الهواء وتصير الأرض مبللة غارقة بالعرق، وكانت صيحات الألم ترتفع من أفواه الزنوج وتسمع فى أعلى السفينة. وكان من الأمور العادية أن يقذف بأجساد الموتى فى البحر. ولم يكن من النادر أن تبلغ الوفيات على ظهر السفينة ما يصل إلى ثلث عدد العبيد فيها[1]. وأحيانًا ما كان قراصنة السفينة بسبب خشيتهم من نقص المياه أو بسبب إحساسهم بالخطر من الأسر، كانوا يقذفون بالحمولة البشرية الحية من على ظهرها لتأكلها أسماك القرش، وعلى الرغم من كل هذه الخسائر فإن أرباح تجارة الرقيق كانت تصل إلى ألف فى المائة فى الرحلة الواحدة.

وقد ذكر «بلاك ـ W. O. Blake» فى كتابه «تاريخ العبودية ـ History of Slavery» الصادر فى سنة ١٨٥٧م أنه فى شأن موت العبيد فى الطريق فإن مستر فالكون بريدج Falcon Bridge ذكر أنه فى ثلاث رحلات اشترى ١١٠٠ من العبيد وفقد ١٩١، وأن «تروتر ـ Trotter» ذكر أنه فى رحلة واحدة كان هناك ٦٠٠ عبد وفقد ٧٠ منهم، وذكر «ميلر ـ Miller» أنه فى رحلة واحدة كان هناك ٤٩٠ وفقد ١٨٠، و«إليسون ـ Eilison» ذكر أنه فى ثلاث رحلات اشترى ٨٩٥ وفقد ٣٦٥، و«مورلى ـ Morley» ذكر أنه فى أربع رحلات اشترى حوالى ١٣٢٥ وفقد ٣١٣، و«كلاكستون Claxton» ذكر أنه فى رحلتين كان هناك ٢٥٠ وفقد ١٣٢، وكل هؤلاء كانوا من تجار العبيد الإنجليز.

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans. P. 79.

وإن الهولنديين الذين كانوا خبراء فى القتل الجماعى والتعذيب الجماعى كانوا يعملون من خلال شركة جزر الهند الغربية والهولندية، وقد تأسست فى عام ١٦٢١م من مجموعة من مغتصبى الأراضى والقراصنة وتجار العبيد. ولكن الفرنسيين والبرتغاليين لم يكونوا مختلفين كثيراً عن الهولنديين بوصفهم قتلة وتجار رقيق، وبالنسبة للإنجليز الذين بنوا لأنفسهم سمعة تاريخية بأنهم قاوموا تجارة العبيد، كانوا فى الحقيقة فى المركز الثانى فى الأعمال الخاصة بالرقيق. وفى سنة ١٧٧٤م فإن ثلاثمائة سفينة أبحرت من ليفربول وكانت تعمل فى تجارة العبيد، وبأى طريقة للمقارنة فإن (الإنجليز كان تجار العبيد من الدول الأخرى يعتبرون بالنسبة لهم من السمك الصغير). إن من نقل من العبيد الإفريقيين فى السفن البريطانية يقدر بنحو أربعة أمثال ما نقل منهم بكل السفن الأخرى التى تنتمى إلى كل الدول الأخرى مجتمعة.

وقد اعتبر الإنجليز أنهم انتصروا انتصاراً عظيمًا فى «أوترخت ـ Uttrecht» عندما نجحوا فى أن يضمنوا لأنفسهم عقداً يتعلق بتجارة الرقيق لكل المستعمرات الإسبانية. وقد حصلوا على هذا الاحتكار فى سنة ١٦٠٠م، وحصل الهولنديون على هذا الاحتكار سنة ١٦٤٠م، وحصل الفرنسيون على هذا الاحتكار سنة ١٧٠١م، ثم ضمنه الإنجليز مرة أخرى سنة ١٧١٣م عن طريق الشركة الإنجليزية لجنوب البحار. وبهذا الاحتكار صار الإنجليز تجار الرقيق المعترف بهم عالميًا. وهذا العقد الأخير تضمنته اتفاقية أوترخت وبها حصل الإنجليز على الحق فى أن يدخلوا إلى أمريكا الإسبانية ١٣٣ ألف زنجى بمعدل ٤٨٠٠ كل سنة لمدة ثلاثين سنة. ومن أجل الحصول على هذا الحق دفعت الشركة لملك إسبانيا ٢٠٠ ألف دولار.

كان لدى «رود إيلاند ـ Rhode Island» وحدها ١٥٠ مركبًا لتجارة العبيد فى سنة ١٧٧٠م، وكانت الأرباح خيالية فمثلاً المركب المسمى فينس فى بالتيمور تكلف بناؤها ٣٠ ألف دولار وحققت أرباحًا فى أول رحلة لها فى تجارة العبيد بلغت ٢٠٠ ألف دولار. وأن تجار العبيد الأمريكيين اندفعوا فى هذه التجارة. كما أن ملاك مصانع النسيج فى الشمال ورجال البنوك شأنهم شأن ملاك السفن حصدوا أرباحًا هائلة خلال تلك العقود من النظام العبودى فى الجنوب الأمريكى.

وكان الكتاب يبررون هذه التجارة بقولهم إن العبودية قديمة قدم الحضارة نفسها وأن الأديان تشرعها إلى آخر هذا الكلام.

إن أول عبيد وطئت أقدامهم نصف الكرة الغربى (الأمريكات) كانوا فى سانتو دومنجو سنة ١٥٠٢م بعد عشر سنوات فقط من رحلة كولومبس أتى بهم ملاك المزارع مدفوعين برغبتهم الحادة لتحقيق الأرباح السريعة، وكان ذلك بداية عبودية الزنوج فى أمريكا. وعلى مدى الخمسين سنة التالية جلب عشرات الآلاف من العبيد لجزر أمريكا الوسطى فى هذه المنطقة مثل كوبا بورتوريكو سانتو دومنجو چاميكا. وكذلك فى بلدان أمريكا الوسطى مثل جواتيمالا ونيكاراجوا وهندوراس وغيرها التى تكون منطقة الكاريبى الواسعة. وبسرعة فاق عدد الزنوج عدد البيض فى هذه البلاد. وعشية ثورة سنة ١٧٩٠م فى هاييتى (سانتو دومنجو) التى صارت مستعمرة فرنسية كان إجمالى سكانها ٥٣٦ ألف نسمة، وإجمالى عدد الزنوج العبيد فيها لا يقل عن ٤٨٠ ألفًا، وكان هناك ٣٥ ألفًا فقط من البيض. ومن المحتمل أن تكون هذه الأرقام بالنسبة للزنوج أقل من الواقع لأن المزارعين كانوا يدفعون ضريبة الرءوس عن العبيد الذين يمتلكونهم فكانوا يقللون من العدد تخفيفًا من الضرائب.

دخلت العبودية فى البرازيل وهى ثانى أكبر منطقة فى نصف الكرة الغربى سنة ١٥٣٢م بمركب هولندية، وصار الطلب على العبيد الزنوج كبيراً وذلك لزراعة المزارع الضخمة لقصب السكر المملوكة للسادة البرتغاليين. وبرغم الحملات التى كان يقوم بها المستعمرون لاصطياد الهنود واستعبادهم فإن ازدياد الطلب على عمال المزارع صار أكثر يسراً بجلب الأعداد الوفيرة من العبيد من إفريقيا ومن المستعمرات البرتغالية فى إفريقيا على وجه الخصوص، ومع نهاية القرن الثامن عشر وخاصة بعد إدخال زراعة جديدة لقصب السكر فاق عدد العبيد فى البرازيل عدد البيض الأحرار هناك بنحو ٥٠٪، وفى بعض مناطق هذا البلد وخاصة «باهيا ـ Bahia» كان عدد العبيد الزنوج هناك يفوق عدد السكان البيض بنحو عشرين ضعفًا.

ومع بداية القرن التاسع عشر بلغ عدد العبيد المجلوبين إلى البرازيل نحو خمسة ملايين عبد، والإحصاءات فى هذا الأمر لا يعتمد عليها ولكن المقدر أن عدد من استورد من العبيد الأفارقة بلغ نحو ١٢ مليونًا قبل انتهاء تجارة العبيد سنة ١٨٥٠م. وقدر بعض المؤرخين الرقم الإجمالى للعبيد الإفريقيين الذين جلبوا إلى كل أمريكا بنحو ١٥ مليون إفريقى، ويذكر «دى بوا» أن مقابل كل عبد استورد ووصل حيّا إلى نصف الكرة الغربى كان مقابله خمسة قتلوا إما فى إفريقيا أو فى الطريق بمعنى أن رقم

١٥ مليونًا المذكورة يقابله إفقار للسكان الإفريقيين من إفريقيا يبلغ ٦٠ مليون نسمة، وهذا الإهدار الضخم للقوى البشرية كان من أكبر المعوقات أمام التطور الإفريقى وتقدم الشعوب الإفريقية.

إن استيراد العبيد إلى الولايات المتحدة وهى أكبر ثالث منطقة لاستيراد العبيد فى الأمريكات كلها بدأ فى عام ١٦١٩م. ومثلما كان الشأن فى البرازيل فإن سفينة هولندية هى ما بدأت بها تجارة العبيد. وقد زاد طلب ملاك المزارع من العمالة الإفريقية لتلاؤمها مع الجو والبيئة التى تصلح لزراعة التبغ والأرز والنيلة (الصبغة الزرقاء) وغيرها. وكان بعض الناس فى هذه المستعمرات يعتقدون أنه بمجرد تعميد الإفريقى واعتناقه المسيحية فإنه يصير حرًا، ولكن هذا الفهم لم يكن يتلاءم مع شهوة ملاك المزارع وشهوتهم فى الربح فصدر تشريع بمنع ذلك فى ميرلاند سنة ١٦٦٣م وفى ڤيرچينيا سنة ١٦٦٧م، وبعد ذلك وعلى مدى كل مرحلة تاريخية للعبودية صار الأفارقة عبيدًا مؤبدين سواء آمنوا بالمسيحية أو لم يؤمنوا، ولم يكن المستعبدون يعبئون بموضوع العقيدة إذا كانت تعوق حصولهم على العمل الرخيص، ولكنهم بقوا يتشدقون بأنهم يستعبدون الإفريقيين ليعلموهم المسيحية.

وفى المرحلة الأولى لمستعمرة ڤيرچينيا كانت المزارع تصل إلى نحو ٥٠ ألف أكرا أو أكثر مما يتطلب أعدادًا هائلة من العاملين فكانت مناطق جذب شديد للعبيد، وعلى أى حال فإن العدد الإجمالى للعبيد كان ينمو بشكل بطىء نسبيًا، ففى عام ١٧١٠م بلغ عددهم ٥٠ ألفًا، وفى سنة ١٧٧٠م وصل عددهم إلى ٤٦٢ ألف عبد فى كل المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة. ثم بعد ذلك مع التطور السريع لزراعة القطن وقصب السكر بعد عام ١٨٠٠م زاد العدد بقفزات كبيرة فبلغ سنة ١٨٦١م نحو أربعة ملايين.

لم تكن كندا يزيد عدد العبيد فيها كثيرًا؛ لأن الجو فيها لا يصلح للزراعة الكبرى، فكان أغلب العبيد فى كندا يعملون فى الخدمات المنزلية أو فى رعاية الماشية والخيل وغير ذلك[1].

(١) المرجع السابق. Out Line Political History of the Americans. P. 79-82

وحشية العبودية

إن المتصالحين مع العبودية والمدافعين عنها طوروا نظريات مزيفة تقول إن ملاك العبيد لأنهم اشتروا العبيد بأموالهم واستثمروا أموالهم فى هذا الشراء فقد كانوا يحرصون عليهم ويبذلون عناية طيبة بشأنهم. وفى الحقيقة فإن الواقع يتناقض مع هذه النتائج وبطبيعة الأشياء فإن استبقاء النظام العبودى يستوجب حتمًا إبقاء العبيد فى جهل مطبق وفرض أقسى أنواع الإرهاب ضدهم وكان من الحتمى أن يتمرد العبيد وأن يقوموا بثورات مما يستدعى قمعهم بشدة، ومن أى زاوية يمكن النظر بها إلى النظام العبودى فقد كان نظامًا بربريًا قاسيًا جدًا فى المزارع والمناطق التى تنتج من أجل التصدير.

وإن مؤرخين وصفوا الحالة بشكل جيد فى أمريكا اللاتينية بقولهم: «بوجه عام لقد اعتبر العبيد الأفارقة حيوانات وعوملوا على هذا النحو، وبعض الكتاب ذكر «إن أصحاب المزارع الكبيرة فى جزر الهند الغربية وجدوا أن الأكثر ربحًا لهم أن يعمل العبيد حتى الموت وحتى إن كان الموت فى سن مبكرة فذلك أفضل من أن يعيشوا إلى سن الشيخوخة والعجز». وقال أحد المؤرخين أيضًا عن مستعمرة البرازيل إنها سبع سنوات مع العمل المتصل بغير راحة ثم يعامل العبد أسوأ مما يعامل به الثور العجوز أو جثة الحيوان التى يلقى بها فى أية خرابة من الخرابات. وذكر آخرون أنه كان من النادر رؤية عبد عجوز، وذكر أيضًا أن العبيد فى المسيسيبى كانوا يعملون ١٤ ساعة فى كل ٢٤ ساعة، كما كانوا فى چورچيا يعملون ١٩ ساعة، ولم يكن يوجد قانون يمنع من أن يعملوا حتى الموت[١].

هذه الحالة العامة سادت أيضًا فى الولايات المتحدة، بل إن العبيد الأفارقة فى هذا البلد عوملوا بقسوة أشد مما عوملوا به فى أى مكان آخر فى نصف الكرة الغربى، وفى الولايات المتحدة كانت تسود النظم الخاصة والقوانين المعمول بها فى البرازيل وغيرها من المناطق ذات الاستخدام الكثيف للعبيد، وذلك على أساس أن العبيد هم مجرد ملكية وليسوا آدميين. وفى المستعمرات البرازيلية الإسپانية كان العبيد لهم حقوق شرعية أكثر وفرص أحسن لضمان حرياتهم مما كان فى المستعمرات الإنجليزية. وأن

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans. P. 82.

ماك ماستر يوضح أن ظروف القانون العبودى فى الولايات المتحدة ومزارعها كانت أكثر قسوة منها فى خارج الولايات المتحدة. وقد كانت عقوبة الجلد تفرض على كل أسود لديه كلب أو يملك بندقية أو يستأجر حصانًا أو يتنزه أو يمشى فى جنازة أو يشترى أو يبيع أو يتاجر بغير إذن من سيده. وكان العبيد ممنوعين أن يتعلموا القراءة أو الكتابة أو أن يدلوا بشهادتهم ضد أى رجل أبيض، أو يرحلوا أو أن يبعدوا عن المزارع التى يعملون فيها بغير إذن من الرجل الأبيض أو بغير أن يكونوا مصحوبين به، وإذا فعل أحدهم ذلك فإن أول رجل أبيض يقابلهم من سلطته عليهم أن يجلد العبد عشرين جلدة على ظهره العارى. وإذا رد العبد الضربة فمن حق الأبيض أن يقتله. وركوب الخيل بغير إذن يعاقب عليه بالجلد وهكذا. وإذا هرب العبد فإن التشريع كان يجيز لأى رجل أبيض حر أن يقتله عندما يلقاه. وكانت سرقة العبد الإفريقى تشكل جناية، ولكن قتله أثناء عقابه، يشكل جريمة.

إن فردريك دوجلاس القائد الإفريقى الكبير وكان عبدًا هاربًا وصف بكلماته صورة العبودية بقوله «إن تجارة العبيد الأمريكية كانت تدعمها الأوضاع السياسية والعقائد المنتشرة فى أمريكا، إنك هنا ترى الرجال والنساء يساقون كالخنازير إلى السوق هل تدرى من هوسائق الخنازير سأريك أحدهم إنهم يعيشون فى الدول الجنوبية ويتجولون فى البلاد ويحملون المسدسات والسياط والسكاكين، ويقودون مئات من الرجال والنساء والأطفال إلى سوق العبيد فى نيوأورليانز، وكان العبيد يباعون فرادى أو جماعات حسب ما يرغب المشترون لقد كانوا حطامًا لحقول القطن ومعاصر السكر»[1].

كانت المرأة الإفريقية تعانى من العبودية، وفضلاً عن كل صعوبات الحياة والعمل الجماعى للجنسين كان عليهن أن يعانين من امتهان سادتهن لهن، وفى المستعمرات الإسپانية لم يكن للعبد أية حقوق قانونية، وإذا كان لا يعترف للرجل بأى حق أن يتزوج فقد كان لا يعترف للمرأة بأى حق أن تتزوج فقد كان لا يعترف للمرأة بأى حق فى أن ترفض أن تساق إلى سرير مالكها أو من يطلبها، وأن رفضها لهذا الأمر كان يشكل عملاً من أعمال التمرد. ولم يكن شيئًا نادرًا أن يعرض مالك المزرعة جارياته

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans. P 83.

على ضيفه ويدعوه إلى اختبار من يريد منهن لقضاء ليلته. وفى مناطق كثيرة من مناطق العبيد وبسبب وضع المرأة الريفية كان معدل المواليد منخفضًا، بحيث كانت الوسيلة الوحيدة لاستبقاء عدد العبيد كما هى الاستيراد من إفريقيا. وكان هناك حالات كثيرة ترفض فيها النساء أن يحملن كنوع من أنواع مقاومة العبودية.

ثورات العبيد

الصراع من أجل الحرية

على الرغم من القيود الحديدية التى كان يقيد بها العبيد الإفريقيون فلم تكن ردود فعلهم دائمًا هى الطاعة، إنما تمثلت الأفعال الاحتجاجية لهم بأنماط شتى مثل عدم العمل مثلاً أو التراخى فى أدائه أو الهروب أو حرق المزارع أو اغتيال المشرفين عليهم وملاك المزارع أو رفض الإنجاب، كما أنهم فى ظروف أخرى كانوا يلجؤون إلى التمرد المسلح. وعلى خلاف ما قال به البعض إنهم كانوا سلبيين ومطواعين وغير مقاومين لظروف العبودية على خلاف ذلك عرفت لهم انتفاضات من أجل التمرد.

وفى بلاد الكاريبى على مدى المرحلة الاستعمارية كلها فإن الفتن والعصيان الذى قاموا به كان متكررًا بدأ أوله فى بداية القرن السادس عشر فى المزرعة التى كان يملكها أخو كولومبس مكتشف أمريكا، وفى كوبا عرفت انتفاضات لهم فى سنوات ١٥٣٣، ١٥٣٧، ١٥٤٨م، وفى المكسيك حدث عصيان مسلح من العبيد الأفارقة سنة ١٥٣٠م كما حدث فى جاميكا انتفاضات لهم فى سنوات ١٦٥٥، ١٦٦٤، ١٦٩٢، ١٧٠٢، ١٨١٦، ١٨٣١م. وعرفت صراعات كثيرة فى السنوات الأولى فى المستعمرات الفرنسية مثل هاييتى ومارتينيك وجوادى لوب، كما حدثت انتفاضات للعبيد عديدة فى جواتيمالا ونيكاراجوا وڤنزويلا، وبعض هذه الانتفاضات أمكنها أن تنتصر بشكل مؤقت ولكنها بعد ذلك، أقمعت بعنف شديد وشنق زعماؤها أو رموا بالرصاص أو حرقوا حتى الموت. ومن أهم ثورات الإفريقيين فى كوبا. هى ما قاده الإفريقى المتحرر «چوز أنطونيو أفونت ـ Jose Antonio Afnote» فى سنة ١٨١٢م، كما أن انتفاضات الإفريقيين فى الكاريبى بلغت ثورة عنيفة فى هاييتى سنة ١٧٩١م التى وجهت ضربة مميتة لنظام العبودية الإفريقى وهزت كيان النظام الاستعمارى بأمريكا.

كان العديد من الإفريقيين يهربون من المزارع وينشدون معسكرات لهم فى الغابات والأدغال ووجدت مستوطنات لهم، وكان الهاربون منهم يسمون «المارونز ـ ، وكثر ذلك فى كوبا وغيرها من جزر الهندSimmarones» أو سيمارونز Maroons الغربية، وفى البرازيل وأمريكا الوسطى، وفى غيانا الهولندية وجدت مستوطنات حولها لما لا يقل عن ١٧ ألف إفريقى فى الأدغال وهم من سلالة العبيد الهاربين من أيام الاستعمار القديم وهم يسمون «الچوكاز ـ Djukas» . وقد ذكر هيرس كوفيتس فى كتابه أسطورة ماضى الزنوج أن الحكومة الهولندية لم تستطع أن تقهر العبيد المتمردين فاعترفت رسميّا بوجودهم فى معاهدات لاحقة .

وفى البرازيل وجدت ثورات للإفريقيين ضد العبودية، وثمة آلاف من الإفريقيين هربوا إلى الأدغال فرحب بهم الهنود وأعطوهم الأرض والصداقة . وقام العديد من ثورات الزنوج العبيد فى البرازيل فى أعوام ١٧٥٦م، ١٨١٣م، ١٨٣٩م، ثم قامت الحروب الدينية لمن سموا بالزنوج المحمدين فى «بهيا ـ Bahia» فى أعوام ١٨٠٧ ، ١٨٣٥م وكانت ذات علاقة بالعبودية، ولكن أقوى ثورات العبيد وأكثرها شهرة فى البرازيل هى ثورة «پالماريز ـ Palmares» ، لقد بدأت بمعسكرات للعبيد الهاربين فى سنة ١٦٣٠م وبقيت حتى سنة ١٦٩٧م كانت جماعة منتظمة أسست جمهورية پالماريز على أسس إفريقية وكان على رأسها «Janja Zomba» وكان قائدًا شجاعًا وعبقريّا، وقد بلغ عدد الزنوج بها من العبيد السابقين نحو ٥٠ ألفًا أنشئت لها حكومة واختير لها قائد ومارست التجارة مع المناطق المحيطة بها . وقد أعد البرتغاليون حملات عسكرية لغزو هذه الجمهورية وتمكنوا منها أخيرًا فى سنة ١٦٩٧م، وقتل آلاف الزنوج المهزومين أنفسهم مفضلين الانتحار على الاستسلام، وهذا الحدث الكبير يعتبر علامة من علامات الطريق فى تاريخ مستعمرة البرازيل .

وفى المستعمرات الإنجليزية لساحل الأطلنطلى مارس العبيد الإفريقيون عددًا من الصراعات من أجل حريتهم، من الأيام الأولى لوجودهم حتى التحرير الذى حدث فى الحرب الأهلية سنة ١٨٦١ ـ ١٨٦٥م، وقد استخدموا الوسائل المعروفة للعبيد وقتها فى هذه المناطق من أمريكا وهى هروب الآلاف منهم فى فلوريدا . وكان أحد الأهداف الرئيسية لحكومة الولايات المتحدة فى حروبها ضدهم هو إجبارهم على تسليم الأعداد الكبيرة من العبيد الإفريقيين الذين هربوا، كما أن الحكومة الفيدرالية

استخدمت قواتها ضد الانتفاضات المسلحة للعبيد فى ڤيرچينيا سنة ١٨٠٠م ولويزيانا سنة ١٨١١م وكارولينا الجنوبية سنة ١٨٢٢م، وڤيرچينيا سنة ١٨٣١م ولويزيانا مرة أخرى سنة ١٨٣٧م.

كان ثمة أحداث كبيرة لانتفاضات العبيد لم تكشف فى المرحلة الاستعمارية الأمريكية. وقد قرر أحد المؤرخين عدد الثورات والانتفاضات التى حدثت فى تاريخ العبودية الأمريكى بنحو ٢٥٠ ثورة وانتفاضة، وهذا يؤكد أن الجهود المنظمة لاستعادة الحرية لهؤلاء الناس لم تكن نادرة، وإنما كانت ظاهرة ذات حلقات متتابعة فى تاريخ الاستعمار الأمريكى.

إن أول ثورة للعبيد سجلت فى الولايات المتحدة فى سنة ١٥٢٦م فى المستعمرة الإسپانية على نهر «پيدى ـ Pedee» جنوب كارولينا. وفى سنة ١٦٦٣م قامت ثورة شملت العبيد الإفريقيين والخدم البيض فى ڤيرچينيا، وكانت هذه هى أول ثورة كبيرة فى المستعمرات الإنجليزية اشترك فيها العبيد الإفريقيون، وقد تبعها ثورات فى مناطق العبيد على مدى القرن الثامن عشر. وحتى فى مدينة نيويورك قامت ثورات مهمة للعبيد منها واحدة سنة ١٧١٢م. فطبقًا لتخطيط محكم قامت مجموعة من العبيد بحرق أحد المبانى، وانتظروا الرجال البيض القادمين للإطفاء وبمهارتهم فى استعمال السكاكين والفؤوس والمسدسات قتلوا منهم تسعة وجرحوا غيرهم قبل أن يفروا هاربين. وذكرت التقارير أنه لولا وجود حامية من الجنود الإنجليز لأصبحت المدينة كلها رمادًا وأبيد الجزء الأكبر من السكان، وعندما خمدت النيران وجرى التحقيق أعدم ثلاثة عشر عبدًا شنقًا ومات أحدهم وهو مصفد فى الأدغال وحرق ثلاثة وهم مشدودون على الخازوق وكسرت عظام واحد على عجلة التعذيب، كما فضل ستة آخرون الانتحار على أن يقاسوا العقوبة على يد مجتمع البيض. ثم أصدرت الجمعية التشريعية بنيويورك قانونًا جديدًا للعبيد يسلبهم معظم الحقوق التى كانوا يتميزون بها فى ذلك الوقت عن نظرائهم الجنوبيين[١].

ولكن هذا القمع الشديد لم يرهب العبيد وقاموا بثورة أخرى عام ١٧٤١م قتل فيها ٣١ من الإفريقيين ومن البيض. وقد استثارت ثورة العبيد فى هاييتى الإفريقيين فى كل

(١) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢٣.

المستعمرات فى نصف الكرة الغربى وقاموا بالثورات لتحرير أنفسهم فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر.

ومع نمو أعداد السكان العبيد بعد سنة ١٨٠٠م بسبب المزارع الجديدة للقطن وقصب السكر صارت الثورات أضخم وأكثر ظهوراً، كما صارت أكثر خطورة على السادة هناك، لقد أبقت هذه الأحداث طبقة ملاك المزارع فى حالة من الانزعاج المستمر واتخذت إجراءات عسكرية قمعية كثيرة لمنع هذه الانتفاضات ولقمعها. وكان الإعداد للثورة وتنظيمها فى هذه الظروف البالغة القسوة والصعوبة أمراً يتطلب شجاعة هائلة ومهارة غير محدودة لهؤلاء العبيد.

وعلى رغم كل هذا الإرهاب فإن ثورات العبيد خطط لها ونفذت وكان الأكثر أهمية هو ما سمى بفتنة «غبريال ـ Jabrial» فى سنة ١٨٠٠م فى ڤيرچينيا، شارك فيها نحو ألف من العبيد وقتل فيها نحو ٣٥ من القادة الزنوج. وفى فلوريدا سنة ١٨١٦م شارك نحو ألف من العبيد وقاوموا جيش الولايات المتحدة لمدة أسابيع حتى أبيدو نهائيّا.

ومن الثورات العديدة التى قامت قبل الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٦٠م، فقبلها بعشرات السنين قامت فى جنوب كارولينا ثورة سنة ١٨٢٢م غدر بها بعض خدم المنازل من الزنوج وأدت إلى شنق ٣٥ من القادة الزنوج. وفى سنة ١٨٣١م فى ڤيرچينيا قامت انتفاضة قادها «نان ترنر ـ Nan Turner». وقد هزمت هى الأخرى وشنق فيها ١٦ من الزنوج، وقامت ثورات عديدة مشابهة مع اقتراب الحرب الأهلية. وأحيانًا ما كان يحدث فى ثورات العبيد الإفريقيين فى كل البلاد هو التعاون ما بينهم وبين البعض من الأهالى البيض. وكان الرمز البارز لهذا التعاون هو المحاولة البطولية التى قام بها چون براون بفرقة صغيرة معه تتكون من ٢٠ من البيض وخمسة من الزنوج فى ڤيرچينيا فى أكتوبر سنة ١٨٥٩م وذلك ليبدأ ثورة العبيد هناك وقد ضحى چون براون وستة معه بأنفسهم فى هذا العمل وقتلوا. كما أن الهنود أيضًا كثيراً ما تعاونوا. وشاركوا العبيد الأفارقة.

وكل ذلك يؤكد بوضوح أن تاريخ هؤلاء الزنوج لم يكن تاريخ خضوع ورضاء بالعبودية كما يريد أعداء الشعب الزنجى أن يؤكدوه على غير الحقيقة. إن هذا التشنيع

والزيف تقول به الطبقات الحاكمة ضد طبقة من الشعب تريد أن تفقدها التقدير وتبرر استغلالها لها. إن الشعب الزنجى أثبت تاريخيًا درجة عالية لديه فى الشجاعة والقدرات القتالية وحب الحرية وذلك فى حروبهم القبلية وفى صراعهم اليائس ضد الغزاة البيض لإفريقيا وضد ثوراتهم العديدة ضد العبودية فى أمريكا[1].

قد يتساءل القارئ مع هذه القسوة والصلف من السادة البيض فى أمريكا للاحتفاظ بعبيدهم وبالنظام العبودى الذى ابتدعوه وطبقوه عبر القرون، وشيدوا به ثراء أمريكا وبناء العالم الجديد وداسوا به مبادئ الحرية والإنسانية التى يتشدقون ويطنطنون بها. حتى چورچ واشنطن ذاته أبو الحرية الأمريكية زعيم حركة استقلال أمريكا وحركة تحرير شعبها الأبيض من الاستعمار البريطانى كان من ملاك العبيد وكان يحوز ٣٠٠ عبد من الزنوج البائسين ولا يوجد فى مراسلاته أو خطبه ما يشير إلى أنه كان يدافع أو يتبنى سياسة الإلغاء للرق. إن واشنطن وغيره من المؤسسين الآخرين لأمريكا وضعوا مصير الجمهورية الجديدة فى مواجهة المعارضة ضد الرق، وكان هناك شعور عام بأن الجمهورية سوف تذوى إذا فقدت عمل الرقيق، ومن ثم لم يحدث أى إجراء من واشنطن ضد الرق ووضع مصالحه الاقتصادية التى تؤدى إلى التمسك بنظام العبيد تعلو على مبادئه الأخلاقية. فما الذى جعل البيض فى أمريكا أن يقبلوا إلغاء العبودية؟ وما الأسباب التى أجبرتهم للخضوع إلى إلغاء النظام العبودى؟

بإيجاز شديد يمكن تلخيص هذه الأسباب فى:

١ ـ العبودية لم تعد مفيدة بعد ذلك من الناحية الاقتصادية بالقدر المأمول فى ظروف أن الاقتصاد صار يعتمد أكثر على الصناعة والمهارات الصناعية.

٢ ـ ثورات العبيد صار منعها وقمعها باهظ التكلفة.

٣ ـ ظهور معارضة عامة للنظام العبودى فى هذه البلاد أتت من العمال الذين يعملون بالأجر ويخشون منافسة العمل العبودى لهم.

(١) المرجع السابق Out Line Political History of the Americans P. 83-87.

٤ ـ تحرر استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا واستقلال المستعمرات الأمريكية عن الدول المستعمرة الأوروبية جعلت الدول المستعمرة فى أوروبا لا تجد مصلحة لا فى أن يقوم قراصنتها وتجارها وجيوشها باصطياد العبيد من إفريقيا نفسها ويحولوها إلى مستعمرات لهم بمناجمها ومزارعها، ويتطلب ذلك منهم استبقاء قوة عملها فيها ليقوموا بهذا العمل لصالح المستعمرين الأوروبيين فعدلوا عن اصطياد الإفريقيين واستعبادهم فى أمريكا وتحولوا إلى استعباد القارة بشعوبها وثرواتها.

***

من أين جاء هؤلاء؟

لا أحد يستطيع أن يقدر حجم القسوة والبؤس اللذين صاحبا اصطياد الملايين من الرجال والنساء فى إفريقيا على مدى الأربعة قرون الأساسية التى نشطت فيها هذه التجارة، إننا نجد أن أكثر السنوات كثافة بالنسبة للعبودية كانت تتركز فى الفترة ما بين ١٧٠٠ ـ ١٨٥٠م. وأن المناطق التى كان يستجلب منها العبيد بانتظام وبأعداد كبيرة كانت فى البداية محدودة.

ولفهم هذا الوضع نأخذ المكسيك كحالة، فإن العمل الإفريقى فى المكسيك حل مبكرًا محل الهنود الحمر خلال قرن واحد. ففى بدايات سنة ١٥٧٠م كان هناك نحو ٢٠ ألفًا من العبيد فى المكسيك، وفى سنة ١٥٨٤م أصدر ملك إسپانيا إلى المجلس الذى يمثله فى المكسيك قرارًا يقول إن الهنود الحمر شعب ضعيف وإنه يتعين أن يترك هذا الشعب لأعماله الخاصة، أما العمل فى المناجم والبناء والحقول والمطاحن فيجب أن يقوم به زنوج «مولاتوس ـ Mulattoes» و«المستيزوز ـ Mestizos».

إن أغلب الإفريقيين الذين جاءوا إلى المكسيك فى هذه الأيام المبكرة من المحتمل أن يكونوا من الجماعات التى تتكلم الماندى الذين كانوا يعيشون وظلوا يعيشون فى الأراضى وراء الجانب الغربى لساحل غينيا، وهؤلاء المختطفون كانوا يعرفون عامة باسم الماندنجو، وبعض هؤلاء جلبوا إلى البلاد لا بأسمائهم ولكن بما أطلقه عليهم قناصوهم، ومن ثم فإن من كانوا يسمون «نوپ ـ Nupe» كانوا يسمون «التاباس ـ Tabas». وقد سلموا بواسطة التجار لأسواق العالم الجديد. وفى المقابل فإن اليوروبا (من نيچيريا) استعبدوا بواسطة شعب «الفون ـ Fon» فى داهومى على الغرب منهم وكانوا يسمون «ناجوس ـ Nagos» ودخلوا بهذا الاسم أمريكا. وإن شعب «سوسو ـ Susu» من شاطئ ساحل غينيا لم يظهروا فى سجلات المكسيك، لأنهم سجلوا باسم «كوكسكو ـ Xoxo» وكثيرًا ما كان المقتنصون لهم اسمان الأول هو الخاص بالسوق الذى اشتروا منه فى الشاطئ الإفريقى، والاسم الثانى هو اسم الكنية الخاصة بقبيلته.

وأغلب العبيد كانوا من غرب إفريقيا، وقد أخذوا من الأسواق الرئيسية أو الأسواق الصغيرة العديدة على طول ثلاثة آلاف ميل من الساحل الإفريقى بين السنغال فى الشمال وأنجولا فى الجنوب. والقليل منهم أخذ من شرق القارة فى القرن السادس عشر. وقد سجلت الأرشيفات المكسيكية اثنتين على الأقل من المدن التى كانت تشكل

دولاً فى شرق إفريقيا «ميلين ـ Melin» أو «مالندى ـ Malindi» وموزمبيق. ومن أخذوا من شاطئ موزمبيق أطلق عليهم اسم «كفراريان ـ Kaffrarian» مشتق من اللفظ العربى كافر أو وثنى، ومن ثم فإن عبيد «زوزا ـ Zoza» من المحتمل أن يكونوا آتين من أقصى الجنوب الشرقى فى جنوب إفريقيا، وضحايا آخرون أتوا من مناطق أبعد فإن السجلات المكسيكية تحدثنا عن عبيد جاءوا من بورما والملايو وجاوا والصين.

وفى العالم الجديد فإن الشعوب الإفريقية كثيراً ما كانوا أقوياء إلى الحد الذى جعلهم يحتفظون بعاداتهم وعقائدهم الخاصة ببلادهم ويعيدون إنشاءها إلى هذا الموطن الجديد. وفى بعض جزر الهند الغربية يظهر هذا الأمر بوضوح. إن المقتنصين من اليوروبا نقلوا إلى البرازيل فى أعداد كبيرة وشكلوا جماعة تحتضن عقائدهم، كما أن الأطفال الآتين من ثقافات راسخة أكدوا بصمتهم بالنسبة للنطق الإفريقى على الثقافة الجارية، ومن ثم فإن «الأوريشا ـ Orishas» أى الآلهة المحليين لليوروبا أعيد إنتاجهم فى البرازيل باعتبارهم قديسين مسيحيين. وفى ريودى چينيرو فإن إله الحرب المسمى «أوجن ـ Ogun» قد صار القديس چورچ وقدس باعتباره فارساً من الكاثوليك.

وكان هناك من التجار العرب من يحصلون على العبيد من زنجبار فى القرن التاسع عشر ثم يسلمونهم إلى التجار الآخرين عبر القارة حتى يصلوا إلى غرب القارة ويباعوا، وقد قص أحد هؤلاء قصته فى سنة ١٨٣١م فقال «لقد باعونا من أجل المال وأنا نفسى باعونى ست مرات بعضها مقابل المال وبعضها مقابل السلاح وبعضها مقابل الملابس، واستغرق ذلك ستة أشهر قبل أن أشاهد الرجل الأبيض».

وإن ذكريات أخرى تقص علينا كيف أن أحد قباطنة الرقيق الفرنسيين اشترى عند ثغر نهر الكونغو امرأة إفريقية كانت فيما يبدو جميلة ولم تكن تخشى البيض فلما سألها تاجر العبيد عن ذلك قالت إنها سبق أن شاهدت الرجال البيض فى بلاد أخرى كانت الشمس فيها تشرق من البحر بدلاً من أن تغيب فى البحر كما هو الحال فى الكونغو، وقالت إنها رأت العديد من الأقمار فى طريقها. وهذه القصة تظهر أن العبيد كانوا يأتون من موزمبيق أحياناً ويباعون فى الكونغو.

لا يوجد شىء غير محتمل بالنسبة للإفريقيين الذين ينتقلون من محيط إلى محيط. وأن كلاً من السجلات الأوروبية والإفريقية تتفق عامة باستثناءات قليلة على أن

الشعوب الساحلية نادراً ما كانت تمدهم بالعبيد من أهاليهم ومن صفوفهم، لقد كانوا يشترونهم أو يأتون بهم من الشعوب التى فى الداخل وكانوا يأتون منها عبر الأميال.

ومن ثم فإن مملكة عبيد« الفون ـ Fon» فى داهومى كانت يؤخذ منها المأسورون بأعداد كبيرة من المناطق التى تكون بعيدة أكثر من مائتى ميل فى الداخل. وهناك مصدر كبير آخر للعبيد فى ساحل الذهب وكان الوسطاء فى تجارة العبيد هناك من شعب «الفانتى ـ Fanti» الذين كانوا يشترون المقتنصين من الأشانتى فى الشمال منهم ويبيعونهم إلى الأوروبيين فى القلاع الساحلية، لذلك كانت تختلط الأسماء بين الفانتى والأشانتى.

والخلاصة عن غرب إفريقيا يمكن القول إن الشعوب الإفريقية القوية التى تقطن الساحل كانت تغزو الداخل وتغزو الشمال، وكانوا يستمدون ما يحصلون عليه من عبيد من الشعوب ذات الوفرة النسبية[1].

العلاقات التجارية الإفريقية

قبل ظهور تجارة الرقيق عبر الأطلنطى كانت هناك علاقات إفريقية أوروبية لا تختلف عن العلاقات العربية الإفريقية ولا العلاقات الهندية الإفريقية. كانت إفريقيا تشبه الجزيرة الكبرى التى يحيط بها المحيط الأطلسى والمحيط الهندى والصحراء الواسعة من الشمال، وعلى طول الحدود الساحلية كانت تقوم علاقات بين مدن تتعامل مع مدن، وحكام يتعاملون مع حكام آخرين وكانت تقوم مدن تجارية وتجار تخصصوا فى التجارة عبر البحار أو عبر الصحارى. كان هناك «والاتا ـ Walata»، «دچين ـ Djenne» وتمبكتو، وكانت على اتصال بمدن أخرى جنوب الصحراء مثل كلوه ومالندى وما شابهها على الساحل الشرقى لإفريقيا.

وكانت التجارة قد صارت مهمة لهذه المجتمعات قبل أن تظهر فى الأفق السفن الآتية من أوروبا عبر المحيط، كانوا جميعًا يندرجون فى التجارة المحلية وينهمكون فى نظم تسويق فعالة، وكان بعضهم ينهمك فى التجارة مع الخارج عبر المساحات

(١) The African Slave Trade, Basil Davidson - James Gvry, Oxford, 2004, P. 120-124.

الشاسعة، ومع ذلك كانت التجارة للقسم الغالب من الريفيين (وكان أغلب الأفارقة ريفيين) ذات أهمية ثانوية فى الحياة اليومية؛ لأنهم كانوا يعيشون على الاقتصاد الطبيعى ويستهلكون ما ينتجون محليّا. ولكن هذا الوضع اختلف كلما بدأت التجارة مع الخارج تظهر وتنمو، كانت المدن صغيرة إذا قورنت بمدن اليوم ولكنها كانت تمد الإفريقيين ببضائع مستوردة ترفيهية لا توجد فى الداخل. وكان هذا النوع من التجارة يخص طبقة عليا وليس الغالبية من السكان.

وعندما كتب ليو الإفريقى فى القرن السادس عشر أن تمبكتو كانت سوقًا كبيرًا للكتب وتأتيها المخطوطات المستوردة من «البربر ـ Barbary» وأن أرباحًا كبيرة كانت تنجم عن تجارة الكتب أكثر مما تنجم من أى أعمال أخرى، عندما قال ذلك لم يكن يبالغ ولا يعنى أن كل سكان السودان الغربى يشترون الكتب، إنما كان يعنى فقط أن تمبكتو وحدها كانت مركزًا مهمًا للتعليم الإسلامى وأنها كانت قادرة على أن تكون مكتبات خاصة. ومثل ذلك يقال عن الواردات الكبيرة لشرق إفريقيا من الخرز والصينى من الصين وكانت تستخدم فى المنازل وعلى موائد الأغنياء وذوى النفوذ (وليس فى الأكواخ ولا لدى الفقراء) فقد كانوا لا يحرصون على تراكم الثروة.

كانت فكرة الملكية الخاصة نادرة، كتب أحد المؤرخين من الشعوب المتحدثة بلغة البانتو فى جنوب إفريقيا يقول: «إن كل الأرض تشغلها القبيلة ويديرها الرئيس بوصفه على رأس القبيلة ولم تكن الأرض ملكًا خاصًا له، كانت جميع مصادر الثروة الطبيعية من أرض وماء وأخشاب ومراع وأشجار مملوكة ملكية عامة ولا تحتجز أبدًا للاستخدام الشخصى الخاص، ولم يكن معترفًا به إلا الأرض التى يقيم فيها الإنسان وما يزرعه باعتباره حقّا خاصًا.

هذه النظم تختلف فى تفاصيلها ولكنها عامة فى أغلب إفريقيا وتتطلب شعورًا بالمسئولية التضامنية الجماعية، وكانت التجارة مفيدة، ولكنها ليست حيوية وقد نمت مع تطور الدول وظهور الحكم المركزى[1].

(١) المرجع السابق. The African slave trade. P 124-129.

نظم التحالف العبودى

بدأت تجارة الرقيق عبر الأطلنطى فى بداية القرن الخامس عشر عندما وصل قبطان برتغالى يدعى «بوى دوسيكييرا ـ Puy do sequeira »، وصل إلى ساحل بنين وتوصل إلى بلاط الملك حيث تسلم إذنًا ملكيًا بالمتاجرة فى الذهب والعاج والعبيد. ولم تكن التجارة تمثل نشاطًا اقتصاديًا جديدًا فقد مارسها الأفارقة من قبل فى مناطق نائية من قارتهم، ولكنها فى تلك المرة كانت بداية الاتصال مع شركاء جدد فى التجارة من مناطق نائية عن قارتهم.

كانت التجارة المبكرة فى العبيد متبادلة بين المشترين الأوروبيين والباعة الأفارقة. فضلاً عن أن التجارة نفسها كانت مقصورة على المراكز التجارية الساحلية، حيث كان يؤتى بالعديد من العبيد الأسرى من الداخل بواسطة الوكلاء الأفارقة، ويباعون بالشروط التى يحددها البائعون الأفارقة ويتسلمون الأسلحة الأوروبية وأسياخ الحديد والنحاس وأوعية القصدير والأباريق وعقود الخرز وشراب الدوم المسكر والمنسوجات نظير العبيد والذهب والعاج.

ولم يكن الرق ظاهرة اجتماعية جديدة على الأوروبيين أو الأفارقة، فقد اشتغلت المجتمعات الإفريقية منذ قرون مضت بتجارة العبيد السود عبر الصحراء الكبرى من غرب إفريقيا إلى أوروبا الرومانية والشرق الأوسط، لكنها كانت نشاطًا عارضًا وليس منظمًا وكان الهدف منها تزويد أمم البحر المتوسط التجارية بالجنود وخدم البيوت والحرفيين فضلاً عن العمال الزراعيين. وفى داخل إفريقيا ذاتها وجد الرق منذ زمن بعيد على نطاق للخدمة الشخصية ولفترة محدودة من الوقت أكثر منه العمل مدى الحياة، ويشبه هذا النوع من الرق ما قام فى أوروبا منذ قرون، ونتج عنه استرقاق المسيحيين للمسلمين والمسلمين للمسيحيين خلال الحروب الدينية، وكان المرء يصير عبدًا إما لكونه شخصًا غريبًا أو كافرًا أو أسير حرب، أو إذا باع نفسه فى سوق النخاسة ليحصل على مال لأسرته أو لارتكابه جريمة شنعاء، وكانت حقوق العبيد محدودة وفرصهم فى التغيير إلى الأحسن مقيدة بصورة قاسية. ولكن بصرف النظر عن ذلك كان ينظر إليهم كأعضاء فى المجتمع يتمتعون بحماية القانون ولهم حقوق خاصة معينة

منهـا التعليم والزواج وحق الأبوة وأهم من كل ذلك كله أن حـالة الرق لم تكن وضـعًا نهائيًا غير قابل للإلغاء أو ينتقل آليًا إلى أبناء العبيد[1].

المهم لقد حمل العبيد الإفريقيون بعيدًا عن إفريقيا تحت أشكال مختلفة، ولكن المجرى العام لتجارة الأطلنطى، يمكن القول إنها جرت فى ثلاثة مجالات، وكان الثالث منها هو الأكـثر أهميـة. هذه المجالات أو الأشكال الثلاثة هى: العبـودية بالقرصنة، العبـودية بالتحالفات الحربية، العبودية بالمشاركة بقدر قل أو كثر من المشاركة السلمية.

وفى المجـال الأول أو المرحلة الأولى، واجهـت إفريقيـا غـزوات صـريحة بـواسطة جماعات صغيرة من الأوروبيين، وكانت هذه الغزوات مختلفة عن الحروب الداخلية للقبائل فى أن الغزاة كانوا يأتون من البحر ويذهبون بعيدًا وسط البحر.

ومـا لبثت طريقة الغـزو أن حل محلهـا أسلوب التـحالف؛ لأن الأوروبيين كـانوا يستطيعـون تقديم سلع يرغب فيهـا الرؤساء الأفارقة رغبة شديدة، بدأ ذلك بالخيل ثم بعـد ذلك زادت عليـه الأسلحـة النارية ثم الكحـول، ثم ظهـرت الرغبـة التى يـمكن تسـميتـهـا بالتـوافق المتبـادل مثل مـا فعله مـامادو كـبيـر مالى الذى أرسل إلى الكابتن البـرتغـالى فى قلعـة المينا يطلب مـسـاعـدته ضـد أعـدائه من جـيـرانه، وكـذلك وجـد الأوروبيون والإنجليز خاصة ـ وجدوا أنفسهم مشتبكين فى حروب تخص أحد الرؤساء الإفريقيين ضد الآخر، وعملوا على استغلال هذا الوضع لصالحهم.

فى سنة ١٥٦٧م شـرع القـرصـان الإنجليـزى «هوكنز ـ Howkins» وهو واحـد من طلائع القادة البحريين الإنجليز القراصنة تجار العبيد، شرع فى القيام برحلته الثالثة فى السعى وراء العبيد وذهب إلى غينيا وسار على الساحل فى الطريق المعروف الآن من الرأس الأخضر إلى «ريوجراند ـ Rio Grande» (فى الجمهورية الحديثة لغينيا بيساو) ثم إلى جزر «الأيدولز ـ Idols» بالقرب من كوناكرى (عاصمة غينيا الحالية) ثم توغل إلى الداخل باحثًا عن الرقيق عبر سواحل سيراليون وجمع فى طريقه ١٥٠ من المقتنصين، وبعد أن عـانى من بعض الخسائر كـان مستعـدًا بأن يبحر بهم إلى جزر الهند الغـربية بأمريكا ويبيعهم هناك للمزارعين الإسپان، ولكن الأحداث غيرت هذا الأمر، فبينما

(١) الحمر والبيض والسود ـ المرجع السابق ـ ص ١٨٤.

كان يستعد للمغادرة من ساحل البحر كان هناك زنجى أرسل سفيراً من ملك الزنوج الذى كان مقمعًا من الملوك الآخرين من جيرانه، وقد عبر هذا السفير عن رغبة مليكه لهوكنز فى أن يتعاون ضد أعدائه بوعد أن كل ما يحصل عليه من الزنوج سيكون الملك مسروراً فى أن يبيعه له. إن هذا الرئيس المحلى لم يكن يعبأ ولا كان يعرف شيئًا عن الاختلاف بين ظروف القنص عند الإفريقيين وبين الظروف التى سيعيش فيها الإفريقيون عندما يباعون للأوروبيين، وقد نظر إلى بيع المسجونين لحليف أتى من البحر مثل بيع المسجونين إلى حليف مستقر على الأرض.

إن هوبكنز بعد ذلك جمع عدداً من القراصنة الإنجليز وانضم إلى ملك سيراليون ضد الملوك المعادين له وقام بإشعال الحرائق وتدمير إحدى المدن التى كان يقال إنه كان بها ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من السكان. «كانت هذه المدينة مبنية لمواجهة الحروب وكان عليها سياج (سور) من الأشجار العالية المتشابكة، وكان فيها من الجنود نحو ١٥٠ مجموعة، وكان الملوك فيها يجمعون نحو ستة آلاف من الجنود الزنوج فضلاً عن السكان من النساء والأطفال وغيرهم. لم تكن السيطرة على المدينة سهلة»، وفى النهاية فإن الإنجليز حرقوا المدينة وأجروا مذبحة هائلة وخرج منها هوبكنز بـ ٤٧٠ من المقتنصين.

هذا النوع من النظم التحالفية حدث فى أماكن أخرى، وكان البرتغاليون يصنعون ذلك كثيراً، وإذا ذكرنا مثلاً على ذلك بعد سنوات قليلة فقد وقعوا معاهدة بالتعاون المشترك مع الحاكم الدائم للملكة الداخلية مونوموتابا فى الأراضى التى صارت بعد ذلك تعرف بروديسيا الجنوبية (زيمبابوى حاليّا). لقد استبدلوا السلاح النارى والمهارة بامتيازات الأراضى والمناجم وكان ذلك مدمراً لمونوموتابا واستقلالها، ولم تكن هذه الحالة الوحيدة ولكن حيثما كان الهيكل الاجتماعى قويّا إلى حد يستطيع به أن يقاوم التغلغل من هذه النوع كان التحالف الحربى يترك طريقه إلى النموذج المنتظم للتجارة السلمية.

ومع نمو تجارة الرقيق فى القرن السابع عشر عندما أصبح الاسترقاق هو العنصر الحاكم فى العلاقات الإفريقية الأوروبية صار تجمع العبيد فى سواحل غينيا والكونغو عملاً يزداد تقبله رغم قيام نظم معقدة من الأحكام والضوابط، كان هذا العمل الدائم هو عمل الرجال الأقوياء على الجانبين يعملون مباشرة أو بطرق غير مباشرة من خلال وكلاء يعينونهم أو تجار أو قواد، ولكنه كان من الجانب الإفريقى عملاً يزداد الاعتماد فيه على الرؤساء والحكام الذين يفهمون قيمة الاحتكار وكيف يدافعون عنه.

وبالنسبة لمسألة البيع والشراء فقد كانت سلمية ولكنها كانت محفوفة بالخطر، ولم يكن الموت غائبًا قط فى سجل الاسترقاق. كانت السفن تبحر من أوروبا وتقترب من الشاطئ الاستوائى باحثة عن معالم الطرق المختلفة عبر الأشجار العالية والنخيل وغيره، وفى النهاية يرسون على الشاطئ بأسلحتهم المعدة للاستخدام، وكانت السرعة حيوية بالنسبة للرقيق؛ لأنه على قدر طول بقائهم على الشاطئ على قدر زيادة الوفيات بينهم وما يعانون من الحمى التى كانت لا تقاوم، وأكثر من ذلك فإنه مع توالى السنين فإن الرؤساء فى السواحل كانوا يضيئون الأضواء على الساحل ليرشدوا السفن أو يتركوا الساحل فى الظلام فلا يستطيع تجار الرقيق أن يصلوا إلى أماكنهم.

وفيما عدا هؤلاء الذين يباشرون التجارة وينمون ويزيدون استثماراتهم سواء كانوا مستثمرين من أوروبا أو مزارعين من أمريكا أو رؤساء من إفريقيا فقد كانت المباراة قاسية وخالية من الرحمة سواء فى لندن أو ليڤربول أو أمستردام، فقد كان الإنسان الذى يقف أمام السارى هو من بعض الوجوه ضحية بشكل يساوى أو يزيد على المقيدين تحت سطح السفينة، وكان الخيار الذى يواجهه يتراوح بين الجوع فى بلده أو الموت على الساحل الإفريقى.

وقليلاً قليلاً ومع استمرار العبودية بوصفها نظامًا منتظمًا انقسم الساحل بين الأوروپيين على أقاليم ومناطق تعتبر طيبة أو سيئة وفقًا لمدى السرعة والبطء فى تسليم العبيد، وكان لهذا الأمر تأثير عميق فى الخبرة الإفريقية. وثمة شىء آخر حدث فى الوقت نفسه كان له تأثيره الكبير ونتائجه البالغة التأثير، أن الرجال صاروا سلعًا تجارية، وليس هذا فقط فإنه مع التوسع فى مشروعات القرن السابع عشر صار الرجال أكثر فأكثر هم السلعة التجارية الوحيدة التى تجذب الاهتمام، ووجد الرؤساء الإفريقيون أن بيع الإفريقيين هو أمر لا يمكن تفاديه فى أية تجارة أو تعامل مع أوروپا وأنهم ما لم يكونوا مستعدين لذلك وما لم يكونوا نشيطين فى تسليم البضائع فإن السفن ستذهب إلى مكان آخر وهذا ما صار إليه النظام.

إن حكام الساحل الإفريقى قد استسلموا لتجارة العبيد، لأنهم وقعوا فى الفخ الذى لم يكونوا يتوقعونه وما ترتب عليهم من آثار كارثية وأنهم كانوا مدفوعين برغبة جامحة وملحة فى الحصول على السلع الأوروپية، الأسلحة النارية التى صارت مهمة جدًا لحروبهم بين بعضهم البعض أو بينهم وبين الأوروپيين.

إن القول بإن تجارة العبيد فى إفريقيا صارت عملاً يقوم به الملوك والأغنياء والتجار، هذا القول هو المفتاح لفهم طبيعة النظام ونجاحه وآثاره على طول الساحل الإفريقى وما يجاوره من أراض إفريقية.

وفى السياق المؤسسى صارت تجارة العبيد لا تنفصل عن أعمال الحكم فى إفريقيا، وحيثما كانت التجارة تجد رؤساء وملوكًا كانت تزدهر، وحيثما لم تجد هؤلاء كانت تضعف، وسواء بالنسبة لتراكم الثروة بواسطة الضرائب أو الهدايا أو أرباح التجارة أو بالنسبة للسلطة السياسية التى دعمها تنظيم هذه التجارة أو بالنسبة للتفوق العسكرى الذى نجم عن شراء الأسلحة النارية فقد بنت العبودية قوة أساسية لم تكن موجودة من قبل ونقلت هذه القوة طابع الحكم القبلى العام والواسع إلى الطابع الأوتوقراطى الضيق.

ومع ازدياد الطلب فإن تجار العبيد كانوا مجبرين دائمًا على الإبحار على طول الساحل ليلتقوا عشرات المقتنصين من هنا وهناك، وكانوا يتحملون فى ذلك أسابيع وشهورًا من مخاطر الأمراض والبؤس ويدفعون ثمن زيادة نسبة الموتى فى صفوفهم، ومع ضرورة التسليم والتسلم فإن المناطق المنتجة أنشأت مجمعات يوضع فيها العبيد للتسليم السريع وصار عدد من القلاع الأوروبية فى ساحل الذهب مراكز للتجميع.

كما أنشأ الأوروبيون أنفسهم مناطق للتجميع وكانت سفنهم التى تسع هذا التجمع معززة بأسلحة كثيرة يكون بها الأوروبيون قادرين عن الدفاع عن أنفسهم إذا حدثت ثورة من العبيد أو هجوم من البر أو غزو من المنافسين فى البحر. وقد كتب أحد تجار العبيد الفرنسيين أنه شاهد سفينة إنجليزية مشحونة بالسلاح تخدم بوصفها قلعة ومحطة للتجارة للشركة الإنجليزية.

شاهد الإفريقيون كيف أن الأوروبيين يحاربون بعضهم بعضًا من أجل احتكار الخدمات البحرية التى تقوم بهذه التجارة، ولم يكن الرؤساء الإفريقيون فى مناطق الساحل بطيئين فى فهمهم لمصالحهم التجارية. فسعوا من جانبهم لكسب احتكار الجانب والخدمات البرية لهذه التجارة ليس فى مواجهة بعضهم البعض أساسًا، ولكن فى مواجهة المحاولات الأوروبية للتغلغل فى البر وفى الأراضى الداخلية لاصطياد العبيد، وقد نجح الأفارقة فى ذلك بشكل عام وأعاقت المجتمعات الساحلية الاتصال بين الأوروبيين وبين شعوب الداخل وبنت لنفسها وضع الوسيط وسلطته فى هذا الشأن.

وقد كان الأفارقة على السواحل يحارب بعضهم بعضًا مثلما يفعل الأوروبيون وينشدون التحالف مع هذه الدولة الأوروبية أو غيرها ويغيرون على منافسيهم ويستعبدونهم ويبيعونهم أو هم أنفسهم يستعبدون ويباعون، وبهذه الحلقة الدائرة بين السبب والنتيجة تأسست تجارة العبيد بهذه القسوة. . كانت تجارة قاسية ولكنها ليست عشوائية؛ لأن نظم التعامل تأسست ونمت وصار السلوك الإفريقى لا يختلف عن السلوك الأوروبى[1].

***

(١) المرجع السابق The African Slave Trade P 101-106